مصر في القرآن والسنة

عبد العزيز الشناوي

السنة النبوية

قرآن كريم

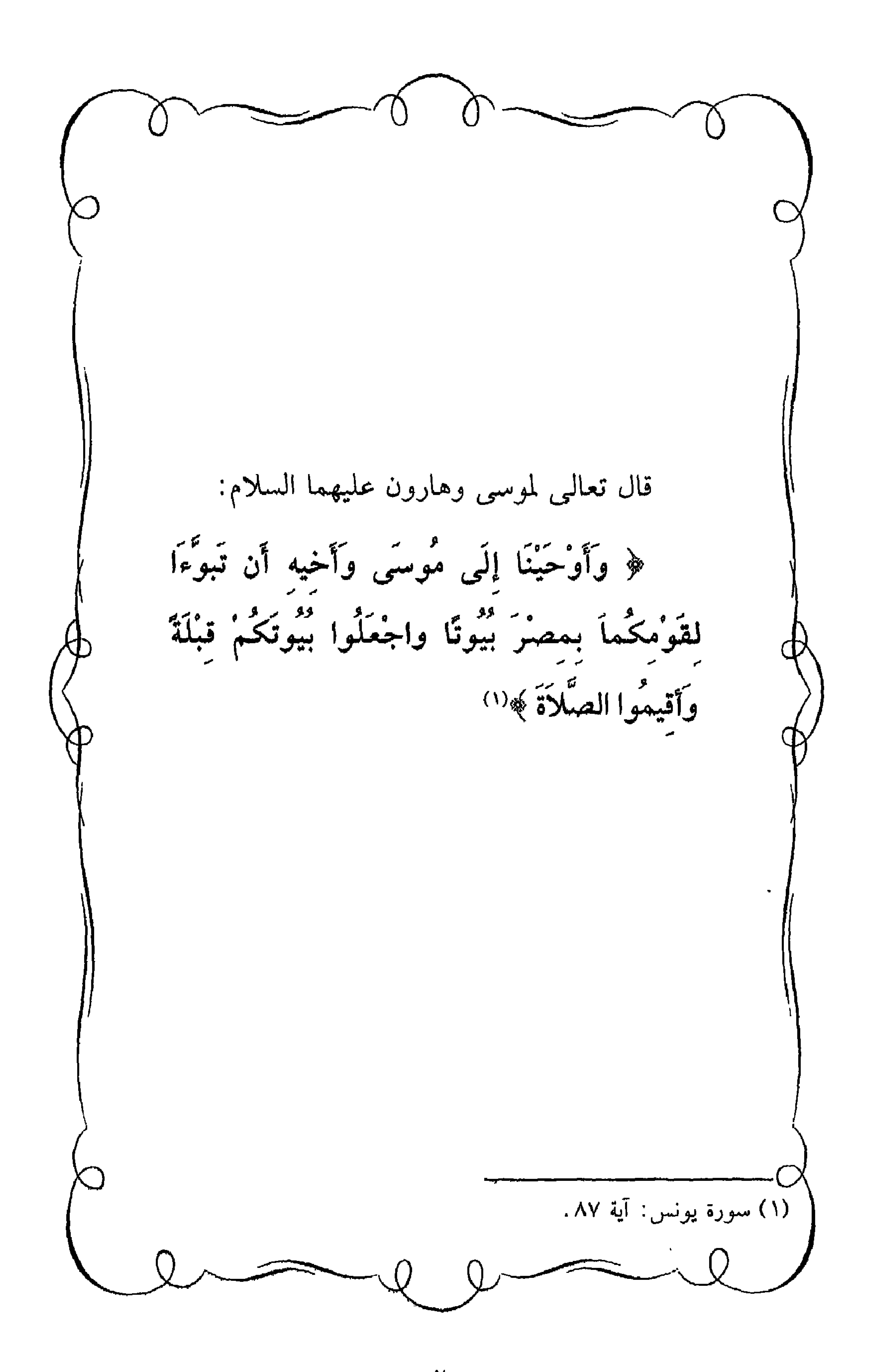
مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر



عبد العزيز الشناوي

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢



قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[1]

(١) سورة يونس: آية ٨٧.

فضل الأمكنة

إذا كان العليم الخبير قد فضل بعض الشهور على بعض ففضل شهر رمضان على سائر الشهور فقال المبعوث رحمة للعالمين ﷺ:

ـ **أتاكم شهر رمضان شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين، وفيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم** (أخرجه أحمد والنسائى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة).

فشهر رمضان سيد الشهور . . قال الهادى البشير ﷺ:

ـ **سيد الشهور شهر رمضان وأعظمها حرمة ذو الحجة** (رواه البزار والبيهقى عن أبى سعيد).

كما فضل تبارك وتعالى يوم عرفة على سائر أيام السنة فقال أبو القاسم ﷺ:

ـ **ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا أو أمة من النار من يوم عرفة، وأنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول: ماذا أراد هؤلاء** (رواه مسلم والنسائى وابن ماجه عن عائشة).

وفضل الله عز وجل يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع قال ﷺ:

ـ **من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عَلَيَّ الصلاة فيه، فإن صلاتكم تعرض عليّ.**

قالوا: ـ يارسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ بليت ـ ؟

قال الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم:

ـ **إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء** (رواه أحمد وأبو نعيم عن أوس بن أوس الثقفى).

وقد فضل العزيز الحكيم بعض الأمكنة على بعض ففضل مكة على سائر القرى فهي البلد الأمين فيها المسجد الحرام قال تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ**

آمنًا﴾[1].

سأل الصحابى الجليل أبو ذر **الغفارى** النبى عليه الصلاة والسلام عن أول مسجد وضع فى الأرض فقال: ـ **المسجد الحرام**.

فقال أبو ذر **الغفارى**: ثم أى؟

قال طبيب القلوب والعقول ﷺ: **المسجد الأقصى**.

فعاد أبو ذر يتساءل: كم بينهما؟

قال الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ: **أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل** (أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفارى).

وبكة موضع البيت الحرام، وأما مكة سائر البلد فهى الحرم كله.

لماذا سميت مكة؟؟

سميت مكة لقلة مائها.

وقيل: سميت بذلك لأنها تمك المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة.

وقيل: سميت بذلك لأنها تمك من ظَلَمَ فيها أى تهلكه وتنقصه.

أما بكة فهى مشتقة من البك وهو الاردحام.

وسميت بكة لازدحام الناس فى موضع طوافهم.

والبك دق العنق.

وقيل: سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم.

قال عبد الله بن الزبير: ـ لم يقصدها جبارقط إلا وقصمه الله عز وجل.

فمكة أم القرى وما حواليها زادها الله شرفا وتعظيما لعظمة بيته الحرام فإنه أول بيت وضعه السميع البصير فى الأرض لعبادته وإقامة ذكره وإن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شىء كثير وفضل غزير فجعله مباركا لتضاعف العمل فيه فالبركة الخير وأن فيه آيات بينات مقام إبراهيم الخليل ـ أثر قدميه فى المقام آية بينة ـ والصفا والمروة والركن والحجر الأسود

(١) آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

والحطيم وزمزم والمشاعر كلها.

والحرم الطاهر المطهر الذى من دخله كان آمنا واختاره الرءوف الرحيم لنبيه ﷺ وجعله مناسك لعباده وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد ومن كل فج عميق.

قال الصادق المصدوق ﷺ: **إن الله تعالى ينزل على هذا المسجد مسجد مكة فى كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة: ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين ـ الذين ينظرون إلى الكعبة فالنظر إليها عبادة ـ** (رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى الكنى وابن عساكر عن ابن عباس).

وفضل الصلاة فى المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفى مسجدى ألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى الدرداء).

* ومكة خير بلاد الله وأحبها إليه ومختاره من البلاد لما جعل عرصاتها مناسك لعباده وفرض عليهم قصدها وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام.

وأقسم الحق تبارك وتعالى بمكة فى كتابه العزيز فى موضعين منه فقال عز وجل ﴿**وهذا البلد الأمين**﴾(1).

وقال تعالى: ﴿**لا أقسم بهذا البلد**﴾(2).

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعى إليها والطواف بالبيت غيرها.

وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه وتحط الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود والركن اليمانى.

والكعبة قبلة لأهل الأرض كلهم فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

* فضل مدينة رسول الله ﷺ

اختصت المدينة المنورة بخصائص كثيرة منها:

ـ تحريمها على لسان أشرف الأنبياء ﷺ فقال:ـ **اللهم إن إبراهيم حرم مكة**

---

(1) التين: آيه ٣. (2) البلد: آية : ١.

فجعلها حرما، وإنى حرمت المدينة حراما مابين مأزميها ـ المأزم: الجبل أو المضيق بين الجبلين ومعناه مابين جبليها ـ أن لا يراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف (رواه مسلم عن أبى سعيد).

وقال أبو القاسم ﷺ:

ـ إنى حرمت ما بين لابتى المدينة كما حرم إبراهيم مكة (أخرجه مسلم عن أبى سعيد).

وقال أبو القاسم ﷺ:

ـ المدينة حرام مابين عير ـ أو عائر وهو جبل معروف بالمدينة ـ إلى ثور ـ جبل معروف بمكة ـ لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها، ولا يحل لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، ولا يصلح أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره (أخرجه أبو داود عن على).

* اشتمالها على أفضل البقاع.

* ودفن أفضل الخلق بها.

* ودفن أكثر الصحابة والسلف الذين هم خير القرون فيها وإن شهداءها هم أفضل الشهداء الذين بذلوا أنفسهم فى ذات الله تعالى بين يدى نبيه ﷺ.

* وأنها فتحت بالقرآن ـ بينما كان رسول الله ﷺ يطوف على القبائل فى منازلهم فى مواسم الحج يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه فيسخرون ويستهزئون به فخرج إلى منى وبينما هوعند جمرة العقبة لقى رهطا من الخزرج فجلسوا معه وراح إمام الخير ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ويتلو عليهم القرآن فنطقوا بشهادة الحق وأعلنوا إسلامهم وأمرهم أن يدعوا قومهم إلى دينهم فسألوا إمام الخير ﷺ أن يرتحل معهم فقال: **حتى يأذن لى ربى**.

فقالوا: امكث على رسلك حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله عز وجل ورسوله لعل الله يصلح ذات بينهم.

ورجعوا إلى يثرب فراحوا يتلون على الناس ماحفظوا من القرآن فإذا بالافئدة تتفتح لآيات الله وإذا بنسائم الألطاف تهب عليهم وإذا بفرح فياض يشيع فى صدورهم وإذا بالألسنة تتحرك بشهادة الحق..

وسرعان ما انتشر نور الإسلام فى دور الخزرج ولم تبق دار من دور الأوس إلا فيها ذكر الله ورسوله ﷺ. ولما جاءت الأشهر الحرم اتفق اثنا عشر رجلا من المسلمين على الخروج لملاقاة نبى الرحمة ﷺ فكانت بيعة العقبة سنة ٦١٩ م ـ وما عداها فبالسيف والسنان .

قال طبيب القلوب والعقول ﷺ: **افتتحت القرى بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن.** (أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة).

* وإن بها افتتحت سائر أمصار الإسلام.

* وأن الهجرة إليها كانت واجبة قبل فتح أم القرى.

قال خاتم الأنبياء ﷺ:

ـ المدينة قبة الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومتبوأ الحلال والحرام (أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة).

وقال إمام الأنبياء ﷺ:

ـ قد رأيت هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين ـ جبلين ـ (أخرجه الحاكم فى مستدركه عن عائشة).

* وأنه ورد الحث على سكناها وعلى اتخاذ الأصل بها، وعلى الموت فيها، والوعد على ذلك بالشهادة أو الشفاعة.

قال الصادق المصدوق ﷺ:ـ **من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلا، فليأتين على الناس زمان يكون الذى له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها** (رواه الطبرانى فى الكبير عن سهل بن سعد وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد).

وقال الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ:ـ **من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شهيدا أوشفيعا يوم القيامة** (رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد)

وقال عليه الصلاة والسلام:ـ **من مات بالمدينة كنت له يوم القيامة شفيعا أو شهيدا** (رواه ابن عساكر عن صميتة الليثية).

* وكثر دعاء النبى ﷺ للمدينة بالبركة.

قال نبى الرحمة ﷺ:

ـ اللهم بارك لأهل المدينة فى مدينتهم وبارك لهم فى صاعهم ـ كيلهم ـ وبارك لهم فى مُدهم ـ المد: مكيال وهو رطل وثلث ـ اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك وإنى عبدك ورسولك وإن إبراهيم سألك لأهل مكة وإنى أسألك لأهل المدينة كما سألك إبراهيم لأهل مكة ومثله معه ألا إن المدينة مشبكة بالملائكة على كل نقب منها ملكان يحرسانها لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، من أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء (أخرجه الإمام أحمد فى مسنده وأبو يعلى فى مسنده وسعيد بن منصور فى سننه عن سعد بن أبى وقاص وأبى هريرة معاكما أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد)

وقال الذى أوتى جوامع الكلم ﷺ:

ـ اللهم بارك لنا فى مدنا وصاعنا واجعل مع البركة بركتين (رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحة عن أبى سعيد).

* وأنها تنفى خبثها، وأنه لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله تعالى من هو خير منه، وأن من أرادها وأهلها بسوء أذابه الله تعالى.

قال إمام الخير ﷺ: **ـ المدينة كالكير تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد** (رواه ابن أبى شيبة عن جابر).

وقال الصادق المصدوق ﷺ: **ـ إن رجالا يستنفرون ـ نفر: رحل وبعد ـ بعشائرهم تقول: الخير الخير، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذى نفس محمد بيده لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا أو شهيدا أوهُمَا جميعا يوم القيامة، والذى نفس محمد بيده أنها لتنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد والذى نفس محمد بيده لا يخرج منا أحد راغبا عنها إلاأبدلها الله خيرا منه** (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة).

* وورد الوعيد الشديد لمن ظلم أهلها وأخافهم.

قال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ من أخاف أهل المدينة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه عدلا ولا صرفا ـ توبة أو عملا أو حيلة ـ (رواه الطبرانى فى الكبير وابن سعد والضياء المقدسى فى المختارة عن السائب بن خلاد).

وقال ﷺ :ـ **من ظلم أهل المدينة وأخافهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل**(رواه الطبرانى فى الكبير والضياء المقدسى فى المختارة عن عبادة بن الصامت).

وقال ﷺ :ـ **من أراد أهل هذه البلدة ـ المدينة ـ بسوء أذابه الله فى النار كما يذوب الملح فى الماء** (رواه عبد الرازق عن أبى هريرة).

* وأن الإيمان يأرزاليها ـ ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض فيها ـ وأنها دار سلام أبدا، وأنها آخر قرى الإسلام خرابا .

* وعصمتها من الطاعون والدجال ونقل وبائها وحماها إلى الجحفة.

قال أبو القاسم ﷺ:

ـ **لا يدخل المدينة المسيح ـ الدجال ـ والطاعون**(رواه البخارى عن أبى هريرة)

وقال النبى ﷺ :ـ **يأتى الدجال المدينة فيجد الملائكة يحرسونها فلا يدخلها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله**(رواه أحمد والبخارى والترمذى عن أنس).

وقال طبيب القلوب والعقول ﷺ:

ـ **اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكةأو أشد اللهم بارك لنا فى صاعها وفى مدها وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة ـ قرية جامعة على اثنين وثمانين ميلا من مكة ـ**

* تأسيس مسجدها على يده ﷺ وعمله فيه بنفسه ومع خير الأمة.

* وكون مسجدها آخر مساجد الأنبياء والمساجد التى تشد إليها الرحال.

قال رسول الله ﷺ :ـ **لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:المسجد الحرام،ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**(أخرجه البخارى والإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى) .

* وأن مابين بيته ﷺ ومنبره روضة من رياض الجنة، وأنه لا يعرف بقعة فى الأرض من الجنة غير مسجدها، وأن منبره الشريف على ترعة من ترع الجنة.

قال إمام الخير ﷺ :ـ **ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى** (أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة).

وقال الصادق المصدوق ﷺ :- **من سره أن يصلى فى روضة من رياض الجنة فليصل بين قبرى ومنبرى** (رواه الديلمى عن عبد الله بن أبى لبيد).

وقال خاتم الأنبياء ﷺ :- **وضع منبرى على ترعة من ترع الجنة، وما بين منبرى وبيتى روضة من رياض الجنة** (رواه ابن النجار عن عمر).

* وقوله ﷺ فى أحد : جبل يحبنا ونحبه (رواه البخارى)

* ووصف النبى ﷺ وادى العقيق بالوادى المبارك.

كان رسول الله ﷺ يسير مع خاله سعد بن أبى وقاص بالمعرس فقال له :- **إنك لبالوادي المبارك** - يعنى وادى العقيق -(رواه البخارى فى تاريخه عن سعد).

ونام رسول الله ﷺ بالعقيق فلما استيقظ قال:

- **وإنه ليقال لى: إنك لبالوادى المبارك** (رواه ابن عدى فى الكامل وابن عساكر عن سعد بن أبى وقاص).

* واختصاص مسجدها بمزيد من الأدب وخفض الصوت وتأكد التعلم والتعليم به.

* والوعيد الشديد لمن حلف يمينا فاجرة عند منبرها.

* واستحباب الدعاء بها فى الأماكن التى دعا بها النبى ﷺ.

* وتخصيص أهلها بأبعد المواقيت.

*** فضل مصر**

من فضائل مصر أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أكثر من عشرين موضعا، منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها مادلت عليها القرائن والتفاسير.

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى:

﴿ **اهبطوا مصر فإن لكم ماسألتم**﴾ سورة البقرة آية: ٦١.

- وقوله تبارك وتعالى يخبر عن فرعون﴿**أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ سورة الزخرف آية: ٥١.

وقوله تعالى﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة**﴾ سورة يونس آية: ٨٧ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام ﴿**ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾ سورة يوسف آية: ٩٩.

وأما مادلت عليه القرائن والتفاسير فمنه:

قوله عز وجل ﴿**ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق**﴾ سورة يونس آية: ٩٣.

وقوله تبارك وتعالى ﴿**وأويناهما إلى ربوة ذات قرارو معين**﴾ سورة المؤمنون آية: ٥٠.

والمقصود بأويناهما مريم بنت عمران وابنها عيسى فالربوة ذات القرار والمعين كما قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه وغيرهم: هى مصر.

وقوله تعالى ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها**﴾ سورة الأعراف آية: ١٣٧ يعنى مصر.

وقوله عز وجل ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم**﴾ سورة الشعراء آية: ٥٨.

وقول السميع العليم: ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين**﴾ سورة الدخان آية: ٢٥ ـ ٢٨ يعنى قوم فرعون، وأن بنى إسرائيل أورثوا مصر.

وقوله تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنود همامنهم ماكانوا يحذرون** ﴾ سورة القصص آية: ٥ـ٦.

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام ﴿ **ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين**﴾ سورة المائدة آية: ٢١.

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون ﴿ **ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض**﴾ سورة غافر آية: ٢٩.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون**﴾ الأعراف آية: ١٣٧.

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ سورة الأعراف آية: ١٢٧ يعنى أرض مصر.

وقول العزيز الحكيم مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿**اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم**﴾ سورة يوسف آية: ٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء** ﴾ سورة يوسف آية: ٢١ .

وقوله تعالى مخبرا عن بنى إسرائيل ﴿ **ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا** ﴾ سورة يونس آية: ٨٨.

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام﴿**عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض**﴾ سورة الأعراف آية: ١٢٩ .

وقوله تعالى: ﴿**أو أن يظهر فى الأرض الفساد**﴾ سورة غافر آية: ٢٦ يعنى أرض مصر.

وقوله عز وجل: ﴿**وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى**﴾سورة القصص آية: ٢٠ يقصد بالمدينة منف.

وقوله تعالى: ﴿**إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا**﴾ سورة القصص آية: ٤:

وقوله عز وجل مخبرا عن ابن يعقوب عليه السلام﴿ **فلن أبرح الأرض**﴾ سورة يوسف آية: ٨٠ يعنى مصر.

وقول العليم الخبير﴿ **إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض**﴾ سورة القصص آية: ١٩ .

وقوله عز وجل ﴿**كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل** ﴾ سورة البقرة آية: ٢٦٥.

يقول زيد بن أسلم: - هى مصر

فمصر أكثر البلاد جنانا وذلك أن جناتها كانت متصلة بحافتي النيل من أوله إلى آخره من حد أسوان إلى رشيد.

وقال عز وجل﴿**وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه**﴾ سورة يوسف آية: ٣٠.

فالمقصود أن قصة يوسف وزليخا - راعيل - قد انتشرت فى أهل مصر فتحدث النساء.

فذكر العزيز الحكيم مصر فى محكم كتابه تصريحا وتلميحا دليل ساطع على قدمها ومكانتها وفضلها بين سادات القرى ورؤساء المدن.

وقد ورد فى حق مصر الكثير من الأحاديث النبوية فإن المصريين أخوال إسماعيل عليه السلام فأمه هاجر المصرية وهو الذبيح ووالد عرب الحجاز الذين منهم النبى الأمى ﷺ، والمصريون أخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وأمه مارية القبطية من سنى كورة أنصنا ـ قرية نحو الصعيد يقال لها: حفن من رستاق أنصنا شرقى النيل بمركز ملوى بمحافظة المنيا ـ

قال ﷺ عن أهل مصر:ـ **ماكادهم أحد إلاكفاهم الله مؤونته.**

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:ـ أهل مصر عاجم كلها ـ أكرم الأعاجم محتدا ـ وأسمحهم يدا، وأفضلهم عنصرا، وأقربهم رحما بالعرب عامة، وبقريش خاصة.

وقال عبد الله بن عمرو أيضا:ـ لما خلق الله آدم، مثل له الدنيا: شرقها وغربها وسهلها وجبالها وأنهارها وبحارها وعامرها ـ بناءها ـ وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأي مصر رآها أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لايخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة، فى سفحه أشجار مثمرة، فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم فى النيل بالبركة ودعا فى أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات: يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة وتربتك مسكة تدفن فيها عرائس ـ فى المقريزى تدفن فيها غراس الجنة ـ الجنة، أرض حافظة مطبقة ـ فى المقريزى مطيعة ـ رحيمة، لاخلتك يامصر بركة، ولازال بك حفظة ـ فى المقريزي حفظ ـ ولازال منك ملك ـ ملك وعز ـ وعز، يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة سال نهرك عسلا، كثر الله رزقك ـ زرعك ـ ودَرّ ضَرْعُك وزكا نباتك وعظمت بركتك وخصبت ولازال فيك يامصر خير مالم تتجبرى وتتكبرى أو تخونى فإذا فعلت ذلك عراك ـ عاداك ـ شر ثم لم يغور خيرك.

فكان عليه السلام أول من دعا لمصر بالرحمة والخصب والرأفة والبركة.

وقال عبد الله بن عباس:ـ دعا نوح عليه السلام لابنه بيصر بن حام ـ وهو أبو مصر الذى سميت مصر على اسمه ـ فقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التى هى أم ـ فى المقريزى أمن ـ البلاد

وغوث العباد، ونهرها أفضل أنهار الدنيا،واجعل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها.

وقال عبد الله بن عمرو:ـ لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده، جعل لحام مصر وسواحلها والغرب وشاطىء النيل، فلما قدم بيصر بن حام وبلغ العريش قال: اللهم أن كانت هذه الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح وجعلتها لنا منزلا فأصرف عنا وباها وطيب لنا ثراها، وأجمع ماها، وأنبت كلاها وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك إنك على كل شيء قدير وإنك لا تخلف الميعاد.

وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به.

وقال كعب الأحبار:ـ لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر.

فقيل له: ولم؟

قال كعب الأحبار:ـ لأنها معافاة من الفتن ومن أراد بها سوء أكبه الله على وجهه وهو بلد مبارك لأهله فيه.

وقال ابن يونس:ـ من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا زخرفت ـ أزهرت ـ

وروى ابن يونس بإسناده إلى أبى بصرة الغفارى قال:ـ سلطان مصر سلطان الأرض كلها.

وكتب فى التوراة: مصر خزائن الأرض كلها، فمن أراد بها سوء أقصمه الله.

وقال أحد دهاة العرب فى الإسلام عمرو بن العاص:.

ـ ولاية مصر جامعة ـ يعنى إذا جمع الخراج والإمارة لواليها أو خراجها وصلاتها ـ تعدل الخلافة.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:ـ خلقت الدنيا على خمس صور: على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه، فالرأس مكة والمدينة واليمن، والصدر الشام ومصر، والجناح الأيمن العراق وخلق العراق أمة يقال لها: واق واق وخلف ذلك من الأمم مالا يعلمه إلا الله، والجناح الأيسر السند والهند وخلف الهند أمة يقال له: باسك وخلف باسك أمة يقال لها: منسك وخلف ذلك من الأمم مالا يعمله إلا الله، والذنب من ذات الحمام إلى مضرب الشمس،وشر ما فى الطير الذنب.

وقال الكندى:

جبلها مقدس، ونيلها مبارك، وبها الطور حيث كلم الله تعالى نبيه موسى، وبها الوادى المقدس، وبها ألقى موسى عصاه وبها فلق الله البحر لموسى، وبها ولد موسى وهارون عليهما السلام ويوشع بن نون ودنيال وأرميا ولقمان، وكان بمصر إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر سبطا ومصر فرضة - الفرضة: من البحر هى محط السفن - الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها، وبها ملك يوسف عليه السلام، وبها مساجد إبراهيم ويعقوب وموسى ويوسف عليهم السلام، وبها البرابى - جمع برباة أوبربا وهو اسم أطلقه المصريون على جميع المعابد والآثار القديمة - العجيبة والهرمان وليس على وجه الأرض بناء باليد حجرا على حجر أطول منهما.

* من نزل مصر من أبناء نوح عليه السلام؟

إن بيصر بن نوح عليه السلام لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته غرب نحو مصر وكان له أولاد أربعة: مصر بن بيصر، وفارق بن بيصر - وقوف بن بيصر - وماح - ساح بن بيصر - وياح - باح بن بيصر - فنزل بموضع يقال له منف وكان عددهم ثلاثين فسميت ثلاثين بهم.

وكان بيصر بن حام قد كبر سنه فأوصى إلى الأكبر ولده وهو مصر.. وإجتمع الناس إليه وانضافوا إلى جملتهم وأخصبت البلاد فتملك عليهم مصر بن بيصر. وملك من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام - وقيل: من العريش وقيل: من الموضع المعروف بالشجرة وهو آخر أرض مصر إلى أسوان من أرض الصعيد طولا ومن أبلة - تخوم الحجاز - إلى برقة عرضا.

وكان لمصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام أولاد أربعة: قبط، وأشمون، وإتريب، وصا فقسم مصر بن بيصر الأرض بين أولاده الأربعة أرباعا وعهد إلى الأكبر من ولده وهو قبط - أقباط مصر يضافون فى النسب إلى أبيهم قبط بن مصر - وأضيفت المواضع إلى ساكنيها وعرفت بأسمائهم.

واختلطت الأنساب وكثر ولد قبط وهم الأقباط فغلبوا على سائر الأرض ودخل غيرهم فى أنسابهم فقيل لكل قبط مصر وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن حام بن نوح عليه السلام.

ولما هلك قبط بن مصر ملك بعده أخوه أشمون بن مصر.. ثم بعده صا بن مصر، وملك بعده أتريب بن مصر ثم ماليق بن دارس ثم ملك بعده حرايا بن ماليق ... ثم ملكت امرأة يقال لها حوريا بنت لوطس نحو ثلاثين سنة ثم ملكت بعدها امرأة أخرى يقال لها ماموم فكثر ولد بيصر بن حام بأرض مصر فتشعبوا وملكوا النساء فطمعت فيهم ملوك الأرض فسار إليهم من الشام ملك من ملوك العماليق يقال له الوليد بن دومع فكانت له حروب بها وغلب على الملك فانقاد إليه أهل مصر واستقام له الأمر إلى أن هلك فملك بعده ابنه الريان بن الوليد العملاقى وهو فرعون يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

*** أول الفراعنة:**

يقال أن أول من ملك مصر من الفراعنة بيوراسب وهو الازدهاق الذى يسميه العرب الضحاك ويدعى أهل اليمن أنه منهم والفرس تذكر أن الضحاك منهم وتنسبه إليهم وأنه بيوراسب بن أروندا سب بن رينكار - زينكار - بن وندو يشتك، ومنهم من ينسبه غير هذه النسبة، وزعم أهل الأخبار أنه ملك الأقاليم السبعة وأنه كان ساحرا فاجرا.

وكان الضحاك أول من سن الصلب والقطع - القتل - وبسط يده فى القتل.

وأول من وضع العشور وضرب الدراهم.

وأول من تغنى وغنى له.

وأنه غصب أهل الأرض بسحره وخبثه وهول عليهم بالحيتين اللتين كانتا على منكبيه.

وقال كثير من أهل الكتاب:

إن الذى كان على منكبى الضحاك كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كرأس الثعبان وكان يسترهما بالثياب ويذكر على طريق التهويل أنهما حيتان تقتضيانه الطعام وكانتا تتحركان تحت ثوبه إذا جاعتا ولقى الناس منه جهدا شديدا وذبح الصبيان لأن اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضطربان فإذا طلاهما بدماغ إنسان سكنتا فكان يذبح كل يوم رجلين.

* لماذا سمى فرعون؟؟

الذين ملكوا مصر من الفراعنة وغيرهم اثنان وثلاثون فرعونا.

وكانت مدة من ملك مصر من بنى نوح والفراعنة والعماليق والروم واليونانيين ألف سنة وثلاثمائة سنة.

وكان اسم فرعون سمة لملوك تلك الأعصار - الأمصار - وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية وهى الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية، وكاليونانية إلى الرومية.

وكلمة فرعون منحوتة من اللفظين المصريين(بر - عو) أى (البيت الأعظم) كانت نعتا ووصفا للقصر الملكى منذ أيام الدولة القديمة، ثم أصبحت علما على ملوك مصر منذ الألف الأول قبل الميلاد.

ولما كثر ولد بيصر بن حام بن نوح بأرض مصر وتشعبوا وملكوا النساء - حوريا بنت لوطس، ماموم - طمعت فيهم ملوك الأرض فسار إليهم من الشام ملك من العماليق يقال له الوليد بن دومع فهزمهم وانقادوا إليه فاستقام للوليد الأمر حتى هلك ثم ملك بعده الريان بن الوليد العملاقى وهو فرعون يوسف عليه السلام،ثم ملك بعده الوليد بن مصعب وهو فرعون موسى عليه السلام،وقد اختلف فيه فمن الناس من يقول: أنه من العماليق، ومنهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشام، ومنهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيصر وكان يعرف بظلما.

* الأنبياء فى مصر.

* إبراهيم عليه السلام.

لما ضاقت بخليل الله أرض حران فشملها الجدب والغلاء خرج من أرض الشام إلى مصر تصحبه امرأته سارة بنت هاران الأكبر - عم خليل الرحمن عليه السلام - وكانت ذات جمال ومن أحسن الناس . وبينما أبو الضيفان عليه السلام وسارة يمشيان فى أرض مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى - كان ذلك فى عهد الهكسوس الذين أغاروا على مصر واستقروا بها وقتا طويلا - فنزل منزلا فوشى بها أحد رجال فرعون وقال له:

- أيها الفرعون العظيم لقد قدمت أرضك امرأة لا ينبغى أن تكون إلا لك لجمالها.

فقال فرعون مصر وقد أغراه جمال سارة وزين له حسنها وحبب إليه الاستحواز عليها.

ـ هل معها رجل؟

قال الواشى :ـ نعم

قال فرعون مصر :ـ أرسله إلى.

فجاء الرجل أبا الأنبياء عليه السلام . . فمشى إلى فرعون فسأله:

ـ ماهذه المرأة منك؟

ففطن أبو الأنبياء عليه السلام إلى مأرب فرعون وعرف مقصده فخاف أن يخبره أنها امرأته فيبيت له الشر أو عمل على الإيقاع به لتخلص إليه من دونه ويستأثر بها بعده فقال:

ـ إنها أختى.

كان خليل الرحمن عليه السلام يعنى أن سارة بنت هاران أخته فى التوحيد والإسلام.

انطلق أبو الأنبياء عليه السلام إلى امرأته سارة فقال لها:

ـ إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فإنك أختى فى كتاب الله وأنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك ـ الأخت كما تكون فى النسب تكون فى الدين واللغة والإنسانية ـ

قال خاتم الأنبياء ﷺ:

ـ لم يكذب إبراهيم غير ثلاث: ثنتين فى ذات الله قوله ﴿**إنى سقيم**﴾[1] وقوله ﴿**بل فعله كبيرهم هذا**﴾[2] وقوله فى سارة هى أختى(رواه البزار عن أبى هريرة).

ومشى خليل الرحمن عليه السلام بسارة إلى قصرفرعون. . فدخلت سارة القصر وقام إبراهيم عليه السلام يصلى.

فهم فرعون مصر أن سارة ليست بذات بعل ـ زوج ـ فأمر أن يذهبوا بها إلى

---

(١) الصافات : آية: ٨٩. (٢) الأنبياء: آية ٦٣.

قصره . . . قينت ـ زينت ـ سارة بفاخر الثياب وثمين الحلى ولكنها لم تعبأ بهذا ولم تلتفت إلى الزخرف البراق ولابذاك البذخ الخلاب فانها لم تنس الوفاء لخليل الرحمن عليه السلام والاستمساك بدينها وجلست مكتئبة حزينة.

وأقبل فرعون فرآها . . فأراد أن يبدد سحب الحزن والكآبة ويخفف من لوعتها وحزنها ويؤنس وحدتها ووحشتها ومد يده نحوها فجفلت وكأن حية لدغتها . . فتناولها بيده فيبست إلى صدره ـ قبض القوى العزيز يده فشلت ـ وأحس فرعون اضطرابا فى نفسه ووجيبا فى قلبه فأعظم أمر سارة بنت هاران وقال لها:

ـ ادعى الله أن يطلق عنى ولا أضرك.

فدعت سارة الواحد الأحد . . فأرسل يد فرعون ـ أطلق الله يده ـ ولكن فرعون عاود النكث بعهده . . وعاد إلى اضطرابه وعاوده انتكاسه ـ شلت يده بقوة وقسوة ـ فقال لمن أحضرها:

ـ لقد أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان.

ثم فعل الثالثة . . فأخذ فقال فرعون لسارة متوسلا:

ـ ادعى الله أن يطلق يدى وعهد لانكث فيه ألا أمسك بسوء.

فدعت سارة ربها . . فأطلق السميع البصير يد فرعون .

وأوى فرعون إلى فراشه وغط فى نومه فرأى رؤيا استبان بها وجه الحق وتبين منها سبل الرشاد وعرف أن لسارة بنت هاران زوجا وأن عليه أن يخلى سبيلها ويتركها وشأنها وألا يمسها بسوء أو يقربها باثم فلما استيقظ من نومه رأى لا مفر من إطلاق سراحها فقال لخادمه:

ـ أخرجها من أرضى.

ووهبها هاجر المصيرية خادما لها.

ولما رأي خليل الرحمن عليه السلام امرأته وهاجر مقبلتين سأل سارة:

ـ مهيم ـ كيف حالك ـ ؟

قالت سارة بنت هاران:

ـ خيرا . . كف الله يد الفاجر وأخدمنى خادما (ذكره ابن جرير الطبرى)

وأقام أبو الأنبياء عليه السلام بمصر ماشاء الله أن يقيم وكان وادع النفس دمث الخلق لين العريكة طويل الأناة دءوبا على العمل فكثر ماله ونمت أنعامه وارتفع ذكره فحسده القوم على مكانته، ونقموا عليه سعة نعمته وسولت لهم أنفسهم أن تمتد أيديهم إليه بالأذى فلما أحس إبراهيم عليه السلام جفوة وهاب فرعون وأشفق من شره فرحل إلي فلسطين.

قال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ هاجر إبراهيم بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أوجبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هى أحسن النساء.

فأرسل إليه أن يا إبراهيم: من هذه التي معك؟

قال: أختى.

ثم رجع إليها فقال: لا تكذبى حديثى فانى أخبرتهم أنك أختى، والله إن ما على الأرض من مؤمن غيرى وغيرك.

فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلى فقالت: اللهم أن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر.

فغط حتى ركض برجله فقالت: اللهم إن يمت يقال: هى قتلته.

فأرسل ثم قام إليها فقامت تتوضأ وتصلى وتقول:

اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على هذا الكافر فغط حتى ركض برجله فقالت:

اللهم إن يمت يقال: هى قتلته.

فأرسل فى الثانية أو فى الثالثة فقال:

ـ والله ما أرسلتم إلى إلا شيطانا ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها آجر ـ هاجر ـ فرجعت إلى إبراهيم فقالت:

ـ أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة (أخرجه البخارى كتاب البيوع عن أبى هريرة) .

وكانت سارة قد أسنت وكانت عقيما ولما رأت حزن إبراهيم وسمعت دعاءه ليمنحه الله الولد زوجته هاجر فولدت إسماعيل أبا العرب.

قال رسول الله ﷺ :ـ **كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم**(رواه ابن سعد عن على بن رباح مرسلا).

وقال خاتم الأنبياء ﷺ :

ـ **ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاما** (رواه الحاكم فى مستدركه والبيهقى فى شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله).

وقال إمام الخير ﷺ:

ـ **أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة** (رواه الشيرازى فى الألقاب عن على).

وذات يوم قال بعض الصحابة :يارسول الله مالك أفصحنا لسانا وأبيننا بيانا؟

قال الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ:

ـ **إن العربية أندرست فجاءنى بها جبريل غضة طرية كما شق على لسان إسماعيل عليه السلام** (رواه ابن عساكر عن إبراهيم بن هدية عن أنس).

* أولاد إسماعيل عليه السلام.

ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام اثنى عشر رجلا: نابتا وكان أكبرهم، وقيذر صاحب إبل إسماعيل، وأذبل، ومنشا، وماشى، ودما ـ دومة الجندل عرف بدرما بن إسماعيل الذى كان نزلها فلعل دما مغير منه ـ،وأذر،وطيما ـ ظميا ـ، ويطور ـ إن جبل الطور سمى بيطور بن إسماعيل ـ، ونبش ، وقيدما وأمهم السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى.

ومضاض وجرهم بن قحطان ـ وقحطان أبو اليمن كلها وإليه يجتمع نسبها ـ ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.(رواه ابن إسحاق).

وقد دفن إسماعيل عليه السلام فى الحجر مع أمه هاجر المصرية.

* حديث الوصاة بأهل مصر وسببها.

قال رسول الله ﷺ:

ـ الله الله فى أهل الذمة أهل المذرة السوداء، السحم ـ السود ـ الجعاد ـ يقال فلان جعد الشعر إذا كان فيه تكسير ـ فإن لهم نسبا وصهرا.

تقول أم المؤمنين أم سلمة:

- أوصى رسول الله ﷺ عند وفاته فقال: **الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله** (رواه الطبرانى والهيثمى فى مجمع الزوائد).

وقال رسول الله ﷺ:

- انكم ستقدمون على قوم جعد رءوسهم فاستوصوا بهم خيرا، فإنهم قوة لكم وابلاغ إلى عدوكم بإذن الله - يعنى قبط مصر - (رواه أبو بعلى والهيثمى فى مجمع الزوائد).

يقول الصحابى الجليل وأحد شعراء رسول الله ﷺ كعب بن مالك:

- قال رسول الله ﷺ: **إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما.**

فقيل لشاعر رسول الله ﷺ: ما الرحم الذى ذكر رسول الله ﷺلهم؟

قال كعب بن مالك: كانت هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم.

وقال كعب بن مالك:

- سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم دما ورحما** - إن لهم ذمة يعنى أم إسماعيل كانت منهم - (رواه الطبرانى والهيثمى فى مجمع الزوائد).

وقال الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى:

- قال رسول الله ﷺ: **إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القبراط فإذافتحتوها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما** - ذمة وصهرا -(رواه الإمام أحمد فى المسند) .

* لوط عليه السلام.

هو لوط بن هاران ابن أخى خليل الرحمن فإبراهيم وهاران وناحور أخوة.

آمن لوط بأبى الأنبياء عليه السلام وخرج معه مهاجرا من حران فارين بدينهما تاركين وطنهما وقومهما علهما يجدان فى غيرهما آذانا مصغية وعقولا ناضجة

ونفوساً ظاهرة فنزلا أرض الشام فلما عم القحط وشمل الجدب والغلاء وضاقت سبل العيش فى الشام رحل خليل الرحمن إلى مصر . . ورحل معه ابن أخيه لوط.

ولما غادر إبراهيم عليه السلام مصر عائدا إلى فلسطين نزح لوط عن محلة ـ منزل القوم ـ عمه بأمره له واذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أهل سدوم ذوى أخلاق فاسدة ونوايا سيئة لايتعففون عن معصية ولا يتناهون عن منكر فعلوه وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة وأخبثهم سريرة يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون بكل سار، ويركبون الفواحش ويأتون الذكور فى الأدبار فلا يصدهم حياء ولا يرعون لوعظ واعظ ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

وأرسل العزيز الحكيم لوط عليه السلام إلى أهل سدوم يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وينهاهم عن الأمور التى يكرهها الله عز وجل منهم.

وسأل لوط عليه السلام ربه النصرة على أهل سدوم لما تطاول عليه أمرهم وتماديهم فى غيهم . . فأمطرت عليهم السماء حجارة من سجيل جعلت ديار أهل سدوم بلقعا ـ البلقع: الأرض الفقر ـ وبيوتها خاوية.

*** إدريس عليه السلام:**

قال العزيز الحكيم﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا**﴾(١).

إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم.

وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكان لايغرز إبرة إلا قال:

ـ سبحان الله

فكان يمسى حين يمسى وليس فى الأرض أحد أفضل عملا منه.

وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة.

وسمى إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى

قال تعالى﴿ **ورفعناه مكانا عليا**﴾ (٢).

لما أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء رأى خاتم الأنبياء ﷺ فى السماء الرابعة إدريس(ذكره مسلم فى الصحيح).

---

(١) مريم: آية ٥٦. (٢) مريم: آية ٥٧.

وإدريس أول من نظر فى علم النجوم والحساب وسيرها، نام إدريس عليه السلام ذات يوم وأشتد عليه حر الشمس فقام وهو منها ـ الشمس ـ فى كرب فقال:

ـ اللهم خفف عن ملك الشمس حرها وأعنه على ثقلها فإنه يمارس نارا حامية.

فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسى من نور عنده سبعون ألف ملك عن يمينه ومثلها عن يساره يخدمونه ويتولون أمره وعمله من تحت حكمه فقال ملك الشمس:

ـ يارب من أين لى هذا؟

قال تبارك وتعالى:ـ دعا لك رجل من بنى آدم يقال له إدريس.

فسأل ملك الشمس إدريس:ـ أتريد حاجة؟

قال إدريس: ـ نعم وددت أنى لو رأيت الجنة.

فرفعه على جناحه ثم طار به فبينما هو فى السماء الرابعة التقى ملك الشمس بملك الموت فسلم عليه ملك الشمس وقال:

ـ ياإدريس هذا ملك الموت فسلم عليه

فقال ملك الموت:ـ سبحان الله ولأى معنى رفعته هنا؟

قال ملك الشمس:ـ رفعته لأريه الجنة.

قال ملك الموت: ـ فإن الله تعالى أمرنى أن أقبض روح إدريس فى السماء الرابعة قلت: يارب وأين إدريس من السماء الرابعة؟ فنزلت فإذا هو معك.

فقبض ملك الموت روح إدريس فرفعها إلى الجنة﴿**ورفعناه مكانا عليا**﴾ (ذكره السدى).

ويقال إن إدريس هو أخنوخ أو هرمس الهرامسة ومعنى هرمس عطارد.

ويقال إنه أوزريس . . . والله أعلم.

قال ﷺ:ـ **أول الرسل آدم وآخرهم محمد وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول من خط بالقلم إدريس** (رواه الحكيم عن أبى ذر).

وقال أبو القاسم ﷺ:

ـ **لما عرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة** (أخرجه الترمذى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس).

وكانت حياة إدريس عليه السلام فى الأرض ثلاثمائة سنة وقيل أكثر من ذلك.

*** يوسف الصديق:**

تنفس الفجر فلمع فى الأفق الشرقى نبع من الضوء فعادت راعيل تتقلب على فراشها.

استحال إلى شوك؟ لماذا لم تكتحل عيناها بالنوم؟ ظلت طوال تلك الليلة تساورها الشكوك والوساوس؟ إلى متى يكوى صدرها ذلك الهم الثقيل؟ أنفاسها تكاد تختنق مما تكابده من قلق.. ليس الجمال بالأمر الذى يقلقها فهى أجمل جميلات مصر.

نهضت من فراشها ومشت نحو شرفة قصرها الذى يطل على نيل مصر كل شيء ساكن خانق إنها تستطيع أن تتبنى من تشاء من الأطفال ولكن هل يرضى هذا غريزة الأمومة فى امرأة العزيز؟

لماذا لا تحمل مثل غيرها من النساء؟ العزيز غير قادر على أن يحقق لها ذلك؟ ماذنبها؟.

فى هذا الوقت كان بنو يعقوب يقدمون أخاهم يوسف إلى مالك بن دعر وقالوا له:

ـ هذا مملوك آبق لا تنقلب به إلا مقيدا مسلسلا.

فقال مالك بن دعر:ـ أعطيكم على هذا عهد الله ولكن كم ..؟

قال أخوة يوسف:ـ ماتجود به نفسك.

قال مالك بن دعر:ـ سأدفع لكم عشرين درهما.

فوافق أخوة يوسف ولكن مالك بن دعر كتب بينهم وبينه كتابا: هذا ما اشترى مالك بن دعر من بنى يعقوب وهم فلان وفلان مملوك لهم بعشرين درهما.

فودع يوسف أخوته عند ذلك وقال: ـ حفظكم الله وإن ضيعتمونى نصركم الله وإن خذلتمونى رحمكم الله، وإن لم ترحمونى.

قيل إن الأغنام ألقت مافى بطونها دما غبيطا لشدة هذا التوديع.

وحملوه على قتب بغير عطاء ولا وطاء مقيدا مكبلا مسلسلا فمر على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمه راحيل وكان قد وكل بيوسف عبد أسود يحرسه فغفل عنه فألقى يوسف نفسه على قبر أمه فجعل يتمرغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول:

ـ يا أماه ارفعى رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا فرقوا بينى وبين والدى فاسألى الله أن يجمع بيننا فى مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين.

فتفقد العبد الأسود يوسف على البعير فلم يجده فقفا ـ أتبع ـ أثره فإذا هو بياض على قبر فتأمله فإذا هو يوسف فركضه بركله فى التراب وضربه ضربا وجيعا فقال يوسف:

ـ لا تفعل والله ماهربت ولا أبقت وإنما مررت بقبر أمى فأحببت أن أودعها ولن أرجع إلى ماتكرهون.

فقال العبد الأسود: والله إنك لعبد سوء تدعو أباك مرة وأمك أخرى فهلا كان هذا عند مواليك؟

فرفع يوسف يديه إلى السماء وقال:

ـ اللهم إن كانت لى عندك خطيئة أخلقت بها وجهى فأسألك بحق آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تغفر لى وترحمنى.

فضجت الملائكة فى السماء ونزل جبريل عليه السلام فقال له:

ـ يايوسف غض صوتك فقد أبكيت ملائكة السماء أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟

قال يوسف: ـ تثبت ياجبريل فإن الله حليم لا يعجل.

فضرب جبريل عليه السلام الأرض بجناحه فأظلمت وأرتفع الغبار وكسفت الشمس وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا فقال مالك بن دعر ـ رئيس القافلة ـ:

ـ من أحدث منكم حدثا؟ فإنى سافرت منذ كيت وكيت ما أصابنى قط مثل هذا.

فقال العبد الأسود:ـ أنا لطمت ذلك الغلام العبرانى فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه ولا أشك أنه دعا علينا.

فقال مالك بن دعر:ـ ما أردت إلا هلاكنا ؟ آتينا به؟

فأتى العبد الأسود بيوسف فقال مالك بن دعر:

ـ ياغلام لقد لطمك فجاءنا ما رأيت فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت وإن كنت تعفو فهو الظن بك.

قال يوسف:ـ قد عفوت رجاء أن يعفو الله عنى.

فانجلت الغبرة وظهرت الشمس وأضاء مشارق الأرض ومغاربها وجعل مالك ابن دعر يزور يوسف بالغداة والعشى ويكرمه حتى وصل إلى مصر فاغتسل يوسف فى نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ورد عليه جماله.

قال رسول الله ﷺ:ـ **أعطى يوسف شطر الحسن.** (رواه ابن أبى شيبة والإمام أحمد عن أنس).

وقال النبى عليه الصلاة والسلام:ـ **أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ـ أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث ـ**

ودخل مالك بن دعر بيوسف مصر نهارا فسطع نوره على الجدران وأوقفوه للبيع فتزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكا وعنبرا وحريرا وورقا ـ فضة ـ وذهبا ولآلىء وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله فابتاعه قطفير وزير ملك مصر بهذا الثمن.

ورجع العزيز بيوسف فدخل على راعيل وهو ينادى:ـ راعيل زوجتى الجميلة أبشرى.

نظرت زليخا نحو زوجها ماهذا الذى يمسك به فى يده؟ إنه يمسك فى يده غلاما مارأت فى مثل جماله من قبل فتعلقت به عيناها وسألته:ـ ما اسمك؟

قال الغلام:ـ يوسف.

وقبل أن يكمل الغلام اسمه قال العزيز:لقد اشتريته من قافلة وجدته فى بئر.

ونظر وزير الملك إلى يوسف فتوسم فيه معدنا كريما وعرقا طيبا فقال لزليخا:

ـ هذا الغلام يخيل إلى أنه نبيل الفطرة سرى ـ رفيع ـ الأخلاق كريم المنبت

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنَ يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [1] وحاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد فإنى لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.

كان التبنى فى الأمم معلوما عندهم وأراد العزيز بقوله « أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» أن تكرم امرأته يوسف فى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن.

يقول عبد الله بن مسعود:

- أحسن الناس فراسة ثلاثة: العزيز حين تفرس فى يوسف فقال﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وبنت شعيب - صفورا - حين قالت لأبيها فى موسى ﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[2]. وأبو بكر حين استخلف عمر.

وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز فى جد وأمانة ولقى فيهم أهلا بأهل وجيرانا بجيران.

ولم تدر راعيل ماذا يخبىء لها القدر مع يوسف بن يعقوب فى مستقبل أيامه ولكنها لا تدرى لماذا أحست بارتياح منذ أن دخل قصرها؟ ولم تعد الوساوس والقلق والهموم تجثم على صدرها.

وكبر يوسف وبلغ مبلغ الرجال وخلع قميص الحداثة ولبس برد الشباب وتعجبت راعيل لماذا يشغلها أمر يوسف؟ ماسر هذا السرور الذى يدخل قلبها كلما رأته؟ ماهذا الهم الذى يدب فى صدرها كلما غاب عن عينيها؟

*** يوسف ... وامرأة العزيز.**

وأخذت زليخا ترقب يوسف فى غدوه ورواحه وتلحظه فى قيامه وقعوده وفى يقظته ومنامه وطعامه وشرابه وحركاته وسكناته بل كلما جن الليل ومضى يوسف إلى غرفته لينام زحفت أحبال الضيق إلى عنقها وكثيرا ماتركت فراشها إلى جوار زوجها النائم وتسللت كالظل إلى باب غرفة يوسف الموصدة عليه وهو نائم لتقف أمامها وقتا طويلا لا تدرى هل أطال أم قصر؟ وتراود نفسها:

- أأدخل عليه أم أعود إلى فراشى؟

---

(١) يوسف: ٢١

(٢) القصص: ٢٦.

إلى متى ستظل تتقاذفها أمواج هذا الصراع؟ هل بدت لها محاسن يوسف الخفية؟ هل ظهرت لها حيويته الفتية القوية؟

وشعرت امرأة العزيز أن حب يوسف ينبت فى قلبها وينبض فى عروقها ويجرى مع أنفاسها . . ولكن هل يحمل يوسف لها نفس المشاعر التى تحملها له؟ إن تصرفاته لا تدل على ذلك لماذا لا تسمع منه تلك الإجابة؟ ولكن كيف السبيل إليه؟ وهى امرأة العزيز ومقامها فى القصر مقامه ومكانة زوجها فى مصر مكانتها؟ لابد أن تخنق ميلها وتسحق هواها وتصرف نوازع الحب والهوى عن نفسها . . ولكن كيف؟ لماذا لا تجربِ؟

ولكنها كلما رأت يوسف مال إليه قلبها ووسوست به فى خلوتها وتمنته . . هل بعث الحب قويا عاتيا فى صدرها؟

وضاق صدرها وذبل جسدها ولم تجد سبيلا إلا أن تجيب داعى الهوى وتجاذب يوسف ثوب الحب على ألا تذل نفسها أو تهبط عن عرشها فنصبت له حبائل الفتنة وأطلعته من نفسها على ماعساه أن يصبى نفسه ويثير داعية هواه . . لكنه أعرض عن تلويحها وغض بصره عن محاسنها ورونق جمالها فكيف يميل الكريم ابن الكريم ابن الكريم إلى محرم؟ أو تجنح به نفسه إلى معصية؟ وأشغل إعراض يوسف نار هواها وأثار المنع كوامن غرامها فرأت زليخا أن تصل بالتصريح إلى مالم تنله بالتلميح وأن تكون أجرأ على ماتطلب وأشجع فيما تريد لم تعد تطيق صده، واعراضه؟

هيأتِ راعيل نفسها لما تريد لقد وجدت نفسها لا تستطيع أن تصمد أمام طوفان ذلك الحب الذى يملأ قلبها فوقفت أمام المرآة وسألت نفسها:

- ترى أهناك فى مصر كلها من تفوقنى جمالا؟ لماذا لا ينشغل يوسف بى؟ هل هناك جارية أخرى ينشغل بها يوسف عنى؟

لماذا لا تواجه يوسف بكل ألوان الإغراء والفتنة؟

مضت امرأة العزيز إلى خزانة ثيابها وجالت عيناها بين ثيابها . . ثم اختارت ثوبا أرجوانى اللون يكشف عن مفاتن جسدها أكثر مما يسترها وارتدت ذلك الثوب ثم عطرت جسدها بعطر نفاذ لايفلت رجل من أسره . . ثم راحت تصفف شعرها.

وأحست راعيل بالإرتياح عندما سمعت أحد الحرس يستدعى زوجها فخرج على عجل إلى ملك مصر . . لن يعود قبل الصباح .

أكملت زليخا زينتها فصارت فى أبهى صورة . . لم يبق إلا أن تلقى صولجان الملك وترتدى شعار المتصبية العاشقة؟

تلفتت راعيل حولها فلم تجد أحدا من وصيفاتها فالكل فى حجراته فى هذا الوقت المتأخر من الليل والعزيز مشغول بأمور لن يعود منها قبل الصباح .

مضت امرأة العزيز إلى حجرة يوسف فوجدتها موصدة وقد أطفأ السراج فطرقت عليه الباب فهب من نومه وأشعل السراج ثم تقدم ففتح الباب فإذا راعيل فى مواجهتة فقال :ـ ماذا هناك؟

قالت فى صوت مرتجف :ـ اتبعنى .

لبى يوسف سريعا استجابة لأمرها وجريا على عادته فى طاعتها . . ولكنه وقف بباب مخدعها مترددا هل حدثه قلبه أن شيئا خطيرا سوف يقع؟

ورأت زليخا فى عينى يوسف القلق والخوف وعدم الإستجابة فدفعته برفق إلى غرفتها وغلقت أبوابها السبعة وأسدلت السجف ـ الستور ـ وأمسكت بيده ومالت نحوه فابتعد عنها فقالت له :

ـ ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[١] .

هلم وأقبل وتعال . . لكن يوسف وإن كان فى ربعان الشباب قد رضع لبان الحكمة وترعرع فى كتف نبى الله يعقوب عليه السلام وأعده الله لشرف النبوة﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾[٢] .

فقلبه مشغول بربه ليس فيه موضع تستميله امرأة وتستهويه نزوات الهوى .

ابتعد يوسف عنها . . فقالت زليخا :

ـ ماهذا يايوسف؟ لم تبتعد عنى وأنا أموت شوقا إليك؟

قال يوسف :

ـ﴿ مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُون﴾[٣] .

---

(١) يوسف : ٢٣ . (٢) الأنعام: ١٢٤ . (٣) يوسف : ٢٣ .

أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتنى إليه إنه سيدى - زوجها - أكرمنى فلا أخونه . .

هز يوسف رأسه وقال :

- معاذ الله أن أجيبك إلى ماترّيدين أو أذعن إلى ماتطلبين وحاشاى أن أخون مولاى العزيز وهو الذى أحسن مثواى وأكرم مأواى وما أنا بمنكر للنعمة ولا بجاحد للجميل .

قالت راعيل :- لقد غلقت الأبواب وأسدلت الحجب .

قال يوسف :- إن كنت قد غلقت الأبواب وأسدلت الحجب فإن الله يعلم خائنة الأعين - ماتخون فيه من مسارقة النظر إلى مالايحل - وماتخفى الصدور وحاشاي أن تطاوعني نفسى لمعصية أو أن يستجيب قلبى إلى مافيه غضبه إنه لا يفلح الظالمون .

اقتربت امرأة العزيز خطوة أخرى نحوه وقالت :

- يايوسف ما أحسن صورة وجهك؟

قال يوسف :- فى الرحم صورنى ربى . . التراب يأكله .

قالت راعيل :- يايوسف ما أحسن شعرك؟

قال يوسف :- هو أول شيء يبلى منى فى قبرى .

قالت زليخا :- يايوسف ما أحسن عينيك؟

قال يوسف :- بهما أنظر إلى ربى . . وهما أول مايسيل فى الأرض من جسدى .

قالت امرأة العزيز :- يايوسف ارفع بصرك فأنظر فى وجهى .

قال يوسف :- إنى أخاف العمى فى آخرتى .

قالت راعيل :- يايوسف ادنو منك وتتباعد منى؟

قال يوسف :- أريد بذلك القرب من ربى .

أشارت زليخا نحو مخدعها وقالت :- يايوسف القيطون فرشته لك فادخل معى .

قال يوسف :ـ القيطون لا يسترني من ربى.

قالت راعيل :ـ يوسف فراش الحرير قد فرشته لك قم فاقض حاجتى.

قال يوسف : ـ إذا يذهب من الجنة نصيبى.

قالت زليخا :ـ لقد أنحلت جسدى بجمال وجهك.

قال يوسف :ـ الشيطان يعينيك على ذلك .

امرأة العزيز فى سطوتها وعزتها وجمالها ودلالها تدعوفتى من فتيانها بل واحدا من خدامها فيأبى ويمتنع ويستكبر ويعتصم؟ إنها الآمرة الناهية فى قصرها والسيدة المطاعة فى خدمها وحشمها . . أنسى يوسف انها عظيمة لا يحتملها كبرياؤها؟ وكبيرة لا تسغها نفسها؟

قالت راعيل فى إصرار :ـ يايوسف لابد من قضاء ماجئت بك من أجله .

فتساءل يوسف :ـ وأين الفرار من غضب الله إن عصيته؟

فقامت راعيل إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف :

ـ ما تصنعين؟

قالت امرأة العزيز :أستحى من إلهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة ـ السوءة ـ

فتساءل يوسف :ـ أنا أولي أن أستحى من الله الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت.

علمت راعيل أن يوسف لن يستجيب لمادعوته إليه فاقتربت منه أكثر وألقت بنفسها على صدره فحسبت أن يوسف إستجاب لها وهم أن يبادلها ماأرادت ولكن وجدته يدفعها بعيدا ويمضى مسرعا فأمسكت بيده وأشتد غضبها وهاج هائجها فهمت به بطشا وأرادت به سوءا إنتقاما لعزتها المضاعة وهم يوسف أن يلقى الشر بالشر ويصد الضرب بالضرب ولكنه أحس باشراق النبوة فى نفسه ورأى برهان ربه ـ رأى مكتوبا فى سقف البيت﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾(١) .

---

(١) الإسراء: ٣٢.

وقيل نودى :ـ يايوسف أنت مكتوب فى ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟

وقيل رأى يوسف صورة أبيه يعقوب على الجدران عاضا على أنملته يتوعده . . فسكن . .

ورأي يوسف أن الفرار خير فمضى مسرعا نحو باب غرفة راعيل إلى باب القصر فجن جنونها كيف يستعلى يوسف بالعفة على هذا الجمال الأخاذ؟

إنطلقت زليخا وراء يوسف عدوا حتى أمسكته من قميصه وجذبته من ثوبه لترغمه على ما أرادت فانشق قميصه من دبر وما انتهى إلى الباب حتى رآه العزيز واقفا وقميصه ممزقا.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدها لَدَى الْبَابِ﴾[1] أى وجدا العزيز عند الباب وعنى بالسيد الزوج فالقبط يسمون الزوج سيدا . . كان موقفا يبعث على الشك والريبة ويثير الإتهام ماذا تفعل امرأة العزيز؟

لابد أن ترجع إلى كيدها ومكرها؟ فقالت:

ـ إن يوسف لم يرع حرمتك ولم يحفظ يدك فإنه حاول أن يدنس ثوبى فراودنى عن نفسى ﴿مَاجَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَليمٌ﴾[2]؟

إذا كانت راعيل جريئة فى الكذب جريئة فى البهتان فلماذا لا يكون يوسف جريئا فى الصدق جريئا فى الصراحة؟ فقال:

ـ هى التى راودتنى عن نفسى وجذبتنى من ثوبى العفيف وهذا قميصى شاهدا على صدق قولى.

وأقبل ابن عم زليخا وكان فطنا لبيبا . فسمع القضية . وفطن لما وراء الأمر فقال:

ـ﴿ إن كَانَ قَميصهُ قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذبِينَ وَإِن كَانَ قَميصهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ من الصادقينَ﴾[3] .

أسرع العزيز ينظر إلى قميص يوسف فرآه ممزقا من دبر فوضح الحق لذى

---

(١) يوسف: ٢٥ . (٢) يوسف: ٢٥ . (٣) يوسف: ٢٦ ـ ٢٧ .

عينين وظهرت براءة يوسف . . فالتفت العزيز إلي امرأته وقال:

ـ ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(١).

ثم نظر إلى يوسف وقال:

ـ وأنت يايوسف أربط لسانك عن الخوض فى هذا الحديث خشية أن تشيع القالة ـ تصبح فضيحة سياسية ـ وينتشر الحديث بين الناس.

كيف رفض يوسف جمال راعيل؟ هل طعنها حقا فى كبريائها؟ طلب زوجها منها أن تستغفر لذنبها لأنها كانت من الخاطئين؟ إنها تعرف كيف يجثو زوجها أمام جمالها الطاغى؟ ولكن لابد أن تخاصم العزيز بحجة أنه طعنها في كرامتها.

كانت زليخا تعلم أن زوجها إذا أظهرت له جفاء أمعن في التقرب منها فهو يحبها ويحس بالضعف أمام جمالها وشخصيتها القوية عليه.

وزاد ماحدث بينها وبين يوسف حبها له واشتعالا ورغبة فيه بالرغم من أنها رمته كذبا بأنه حاول إغراءها . . وحاولت امرأة العزيز استدراج يوسف إلي جولة أخرى . . ولكنه أعتكف فى حجرته . . فشاع فى المدينة على ألسنة النسوة وبين جنبات القصور أن امرأة العزيز قد أفتتنت بغلامها العبرانى ووقعت فى غرامه وأستهامت بجماله وأنها نزلت عن عرشها ودعته إلى نفسها ولكنه عزف ـ إنصرف عنها ـ عنها وزهد فيها ولم يفتنه حسنها ولا جمالها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ إِمْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢).

قيل أن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة الحاجب . . قالت هذه النسوة:

ـ امرأة العزيز غلبها فتاها .

فانتشرت القصة فى أهل مصر.

وامتلأت سماء مصر بقصص وشائعات حول ماحدث فقد كانت كل مجالس النساء لا حديث لها إلا عن راعيل ويوسف . . فسقط في مسمع امرأة العزيز كل

---

(١) يوسف: ٢٨ . (٢) يوسف: ٣٠ .

ماتحدث به لداتها ـ اللدات: جمع لدة وهى من يساوى المرء فى سنه ـ وأترابها من نسوة المدينة.. فامتلأت غيظا حين سمعت ذلك كيف صارت سيرتها مضغة أفواه نسوة مصر؟ صارت راعيل هدفا للشماتة والسخرية؟ كيف تدحض هذا القول؟ كيف تفل ذلك السلاح وتقابل مكر النسوة بمكر وكيدهن بكيد؟ لابد أن تسخر منهن كما سخرن منها إن كن سخرن بألسنتهن من امرأة العزيز فسوف تكون سخريتها أقسى عليهن..

خرجت راعيل إلى شرفة قصرها ورمت ببصرها على صدر النيل تارة تنظر إلى صفحة النهر والمياه وأخرى تنظر إلى السماء.. وأخيرا استقرت فى تفكيرها على أمر.

دعت راعيل نسوة المدينة فى يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها وهيأت لهن متكآت وأرائك مريحة وخلعت عليهن أردية الحفاوة وحاطتهن بهالة من النعيم وقدمت إليهن الفاكهة وآتت ـ أعطت ـ كل واحدة منهن سكينا لتقطع بها الفاكهة.

وتعجبت كثيرات من سيدات المدينة لتلك الدعوة التى وجهتها امرأة العزيز لهن.. وجلست كل واحدة من السيدات اللاتى لبين دعوة زليخا وأمامها طبق فاكهة وسكين فتبادلن نظرات ذات مغزى.. لماذا تتحدث امرأة العزيز عن الفاكهة وعن أمور بعيدة كل البعد عن الفتى العبرانى وقصتها معه؟ هل وضعت زليخا نساء المدينة فى تجربة كاشفة؟

وذكرت امرأة عجوز ماكرة قصة امرأة عاشقة ماتت لوعة وأسى لقتل عاشقها فى معركة ضد أعداء مصر ولكن زليخا بذكاء أكثر حولت مجرى الحديث إلى ناحية أخرى وقالت:

ـ لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن.

ثم قالت راعيل لخادمها:

ـ إذا قلت لك أدع لى ايلا ـ أى الرب وأيل بالعبرانية: الرب ـ فادع يوسف.

وكان يوسف يعمل فى الطين وقد شد مئزره وحسر ذراعيه فقالت للخادم:

ـ ادع لى أيلا ـ صنم كانوا يعبدونه ـ

فتعجب النسوة وقلن:ـ كيف يجىء ؟.

فصعدت الخادم ودعت يوسف. . فلما جاء قالت راعيل:

ـ اخرج عليهن وامش بين صفوفهن.

كان يوسف يجلس فى مجلس مجاور من القاعة التى أستضافت فيها النسوة. . فخرج وقد صبغ الحياء وجهه وملأه الحسن من أخمصه ـ الأخمص: من باطن القدم مالم يصب الأرض ـ إلى مفرقه ـ المفرق: الموضع الذى يفرق فيه الشعر ـ وكان خروجه المفاجىء بجماله الباهر ذا أثر كبير على النسوة فقد شاهدن فتى لا كالفتيان وشابا لا كالشبان أبلج الغرة وضىء الطلعة حلو الملامح فهالهن أمره وبهتن وذهلن عما كن فيه وخولطن فى عقولهن فإذا السكاكين تقع على أيديهن فتقطعها فما شعرن إلا بالدم يسيل من أيديهن فانتبهن بعد أن قلن:

ـ ﴿ حَاشَ لله مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيم﴾(١).

حينئذ كست ملامح زليخا علامات الجد والإهتمام والإرتياح وتحول وجهها الجميل إلى وجه قطة متوثبة وصفقت بيديها وكأنه سرى عنها وقالت فى فرح:

ـ ﴿فَذَالِكُنَّ الَّذى لُمْتُنَّنِى فيه وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَفْسه فَاسْتَعْصَمَ وَلِئَن لَمْ يَفْعَلْ مَاآمُرهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا منَ الصَّاغرِينَ﴾ (٢).

أشارت راعيل نحو يوسف وأردفت:

ـ هذا يوسف الذى خضتن فى حديثى معه وهذا شأنكن فيه وقد رأيتنه عفوا وشاهدتنه لمحا فما بالكن تلمننى فيه؟ وقد ترعرع فى دارى وبلغ أشده أمامى واستوى بين سمعى وبصرى؟ ولا أخفى عليكن أننى قد راودته عن نفسه فتأبى وأستعصم وإنصرف عنى وأعرض وقد أذللت نفسى وأفتضح أمام الناس أمرى لئن لم يفعل ماآمره لأدفعن به إلى غيابات السجن يعانى ظلامه ويبلى فيه رداء شبابه أو لأذيقنه هوان نفسه وإيذاء جسمه فهما أمران يختار أهونهما عليه؟

سمع يوسف إلى قول امرأة العزيز بهدوء الواثق ورأى النسوة مارأين من جمال يوسف وروعته ورأين مارأين وسمعن ماسمعن من حرقة راعيل وصبوتها وتمنيها فى عزها وجاهها وفى سطوتها وسلطانها. . ثم تهديدها ووعيدها فتألبن معها على يوسف وتقربن إليه فقالت إحداهن.

---

(١) يوسف: ٣١.　　(٢) يوسف: ٣٢.

ـ أيها الفتى الكريم ماهذا التأبى والتمنع ولم هذا الأنصراف والإزورار؟ أليس لك قلب يلين لهذه التى أسلمت نفسها ودفعت إليك بقلبها؟ أليس لك عين تنظر إلى من تقيد الطرف بحسنها وتستميل العصى بجمالها؟ ألست شابا مكتمل الشباب لك فى المرأة نصيب؟

وقالت أخرى:

ـ ودعك من جمالها وغرامها ألست تنظر إلى مالها وسلطانها وعزها ؟ ألم تعلم أن كل مافى هذا القصر مبذول لك لو أطعتها ميسر لك إذا أجبتها؟

وقالت ثالثة:

ـ إن لم يكن لك مأرب فى جمالها أو مطمع فى مالها ألست تخشى ماتوعدتك به من سجن لا تعلم مداه أو عذاب لا تدرك غايته أو منتهاه؟ الخير لك أن تخفف من عنادك فتفوز بالحسنيين: الجمال والمال وتأمن من شرين السجن والعذاب.

وسمع يوسف من نسوة المدينة رغبتهن فيه كما رغبت فيه امرأة العزيز فقال بلا تردد:

ـ ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

أوحى الله إلى يوسف:

ـ يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت: السجن أحب إلى ولو قلت: العافية أحب إلى لعفيت.

اضطرب يوسف بين الوعد والوعيد وبين المنع والإغراء حتى خاف أن يشتبه عليه الأمر ويوسوس إليه الشيطان فتوسل إلى الله عز وجل فالمؤمن من لا يزال يفزع ـ يلجأ ـ إلى الله فى كل ما يصيبه من هم أو مكروه فيلتمس منه العون والسداد وتضرع إليه أن يصرف عنه السوء ويصد عنه كيد النساء﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

---

(١) يوسف :٣٣. (٢) يوسف: ٣٤.

كان النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله عز وجل فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل ما رآه من حسنه .

فقال يوسف :ـ اللهم اصرف عنى كيدهن .

فاستجاب له دعاءه ولطف به وعصمه عن الوقوع فى كيد النساء ـ الزنا ـ

* **يوسف فى السجن:**

قالت زليخا لزوجها:

ـ إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى وأنا أريد أن تسجنه .

فأمر العزيز فحمل يوسف إلى السجن مقيدا على حمار وطيف به:

ـ هذا جزاء من يعصى سيدته .

وكان يوسف يقول:ـ هذا أيسر من مقطعات النيران وسرابيل القطران وشراب الحميم وأكل الزقوم .

فلما انتهى يوسف إلى السجن قذف فيه بريئا من ذنبه فاستقبل فيه محنة جديدة تلقاها بقلب الصابرين وعزم المؤمنين .

ووجد يوسف فى السجن قوما مظلومين وأغفالا ـ جمع غفل وهو من لا يرجى خيره ولا يخشى شره ـ ومساكين وأناسا قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم . . أليست هذه فرصة طيبة وسانحة ليواسيهم فى آلامهم؟ ويشاركهم فى محنتهم؟ فيكون ذلك أروح لنفسه الرضية وأنسب لطبعه الكريم؟ لقد وعده الله عز وجل النبوة ومناه الرسالة فأى شرف يعلو هذه المنزلة؟

قال يوسف للمسجونين:ـ اصبروا وأبشروا تؤجروا .

فقالوا:ـ يافتى ما أحسن حديثك لقد بورك لنا فى جوارك من أنت يافتى؟

قال يوسف:ـ أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم .

وكان يوسف يعزى فيه ـ السجن ـ الحزين ويعود فيه المريض ويداوى فيه الجريح ويصلى الليل كله ويبكى حتى تبكى معه جدر البيوت وسقفها والأبواب . . فطهر به السجن واستأنس به أهل السجن فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع

حتى يجلس فى السجن مع يوسف وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ثم قال له :ـ يايوسف لقد أحببتك حبا لم أحب شيئا حبك .

فقال يوسف :ـ أعوذ بالله من حبك .

فتساءل صاحب السجن :ـ ولم ذلك؟

قال يوسف :ـ أحبنى أبى ففعل بى أخوتى مافعلوه ـ ألقى به أخوته فى غيابات الجب وباعوه بثمن بخس ـ وأحبتنى سيدتى ـ راعيل ـ فنزل بى ماترى .

وعمر الملك ـ الريان بن الوليد ـ فى أهل مصر فملوه ، فوضع السم فى طعامه فلما حضر الطعام قال منجا الساقى :

ـ أيها الملك إن مجلث ـ محلب ـ الخباز قد وضع السم فى الطعام فلا تأكل فإن الطعام مسموم .

فقال مجلث الخباز : ـ أيها الملك لا تشرب فإن الشراب مسموم .

فقال الملك لمنجا ـ نبو ـ الساقى :ـ اشرب

فشرب منجا فلم يضره . . فقال الملك لمجلث الخباز :ـ كل

فأبى الخباز أن يأكل الطعام فجرب الطعام على حيوان فنفق مكانه . . فأمر الملك بحبس منجا الساقى ومجلث الخباز سنة .

قال يوسف لأهل السجن :ـ إنى أعبر الأحلام .

واستيقظ منجا ومجلث ذات يوم مكروبين فقال لهما يوسف :

ـ مالى أراكما مكروبين؟

قال ساقى الملك وخبازه :ـ ياسيدنا إنا رأينا ماكرهنا .

فقال يوسف :ـ فقصا على

قال منجا :

ـ ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[1] أخذت ثلاثة عناقيد عنب أبيض فعصرتهن فى ثلاث أوانٍ ثم صفيته فسقيت الملك كعادتى فيما مضى .

---

(١) يوسف : ٣٦ .

وقال مجلث الخباز:

ـ ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ مِنْهُ الطَّيْرُ﴾[1]رأيت كأنى أختبزت فى ثلاثة تنانير ـ جمع تنور وهو الفرن ـ وجعلته فى ثلاث سلال فوضعته على رأسى فجاء الطير فأكل منه.

فقال يوسف:

ـ ﴿لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ* وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2].

فقال منجا ومجلث:ـ ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

أى العالمين الذين أحسنوا العلم . . فقال يوسف:

ـ ما أنا بكاهن ـ هذا من فعل العرافين والكهنة ـ وإنما ذلك مما علمنيه ربى إنى لا أخبركما به تكهنا وتنجيما بل هو وحى من الله عز وجل .

ووجدها يوسف نهزة ـ فرصة ـ يمهد بها للدعوة فقال:

ـ ياقوم إن وراء هذه الأصنام التى تعبدونهاوالآلهة التى تتقربون إليها إلها قد أوحى إلى أن أدلكم عليه وأرشدكم إليه وأن ماتعبدونه من رع وأبيس ـ رَع: علم على الشمس وأبيس: علم على العجل وكانا من الآلهة. عند قدماء المصريين ـ أو تمثال أو صنم ليست إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ولا يحملكم على عبادتها دليل أو برهان وإن التمستم دليلا على صدقى أو أردتم برهانا على صحة دعوتى فدونكم تأويل رؤيا الفتيين: أما أحدهما فسيخرج من سجنه ويعود إلى سابق عهده ـ منجا ساقى الملك ـ ساقيا للملك قائما بين ندمائه. . وأما الآخر فسيصلب وستأكل الطير من رأسه عرفت هذا عن وحى غيب.

ثم قال يوسف لمنجا:

ـ ياهذا إذا فارقت سجنك ورجعت فى قصر الملك إلى مكانك فاذكر له أن

---

(١) يوسف: ٣٦ (٢) يوسف: ٣٧ ـ ٣٨ . (٣) يوسف: ٣٦.

مظلوما يحويه السجن ومتهما بغير جريرة ـ ذنب ـ يعانى الأسر والأغلال.

وصح تأويل يوسف ونجا نبو الساقى وصلب محلب الخباز.. ولما ابتدأ نبو الساقى يعود إلى الريان بن الوليد حتى اضطرب فيما يضطرب فيه الناس وأنساه الشيطان أن يذكر يوسف عند ربه ـ الملك ـ

قيل:ـ يايوسف أتخذت من دونى؟ لأطيلن حبسك.

فبكى يوسف وقال:

ـ يارب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت كلمة ـ ﴿إذْكُرني عِنْدَ رَبِّكَ﴾[1] ـ فويل لاخوتى.

فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ـ سبع سنين ـ

قال عبد الله بن عباس :

ـ قال رسول الله ﷺ: لو لم يقل يوسف ـ يعنى الكلمة التى قال ـ مالبث فى السجن طول مالبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله عز وجل).

* خروج يوسف من السجن:

أصبح الريان بن الوليد عن رؤيا أهمته وأفزعته وأزعجت طائر الإطمئنان فى صدره لقد أراه الله عز وجل هذه الرؤيا فهالته فدعا إليه علماء مملكته وأشراف قومه وقال لهم:

ـ ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[2] مهازيل وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

ثم طلب الملك من الكهنة وكبار مملكته وأمرائه تعبير هذه الرؤيا وتفسير ذلك الحلم فعجزوا عن التأويل وقالوا:

ـ خيالات ورؤيا لا يصلح تأويلها لاختلاطها ولو كانت رؤيا صحيحة لأولناها.

ولكن هذه الرؤيا ذكرت ناسيا ونبهت لاهيا وأثارت عند نبو الساقى ذكريات بعيدة منذ سنين لقد تذكر يوسف السجين الذى أول له الرؤيا.. وصدق التأويل. إنه يمرح الآن فى أعطاف النعيم.. وقد تذكر بعد نسيان فقال:

---

(١) يوسف: ٤٢.　　(٢) يوسف : ٤٣.

ـ أيها الملك إن بالسجن فتى كريما صائب الفكر ملهم الرأى يكشف ودائع الغيوب بنور عقله تعرض عليه الرؤيا فيفسرها ويجليها ولو أرسلتنى إليه لجئتك بالخبر اليقين .

فقال الملك :ـ اذهب إليه.

فانطلق نبو إلى يوسف فوجده كما تركه منذ سبع سنين صابرا محتسبا مؤمنا قانتا فقال له:

ـ يوسف أيها الصديق فيما أرجو أن يكون لك فيه فرج من ضيقك. . أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

قال يوسف:

ـ إنكم تستقبلون سبع سنوات لينة رخاء تكونون فى أخصب تربة وأكلأ جنات تزدهر حقولكم وتزيد غلاتكم ويصفو لكم العيش وتطيب الحياة . . ثم تأتى فى أعقابها سبع شداد ينكص النيل فلا يفى بوعده ولايمدكم بمائه ويتجهم وجه الأرض فلا تجدون قائما يحصد ولا حصيدا يخزن وتصابون بالنائبة العظمى. . ثم بعد ذلك تصالحكم الأيام ويقبل الزمان ويظلكم عام خصيب تغاثون فيه من شدتكم وتصلحون مافسد من أموركم فتعصرون وتحلبون .

ثم أردف يوسف:

ـ وإذا كان ما أخبرت واقعا لامحالة فما حصدتم فى سنيكم الرخاء فاخزنوا فى أهرائكم ـ مخازنكم ـ ودوركم مصونا فى سنبله حتى يظل سليما نقيا إلا ما تحتاجون إليه مما يقيم أودكم ويحفظ حياتكم لتتقوا السبع الشداد والسنين العجاف.

فلما عاد نبو الساقى إلى الملك وأخبره بهذا التفسير فطن الريان بن الوليد لذلك النصح والتدبير وأدرك أن وراء هذا عقلا حصيفا وفكرا ملهما فقال للساقى:

ـ ائتونى به

فانطلق نبو الساقى إلى السجن وقال:

ـ يايوسف إن الملك يدعوك إلى حضرته ليختبرك ويدرك بك الغاية ويفيد من رأيك وعلمك فقد لمح من نصحك رأيا حصيفا وأنه ليوشك أن يرتفع مقدارك ويطلع نهارك.

هل يخرج الكريم مسرعا وقد علمه ربه كيف يكون صبورا حليماً؟ هل يحب أن يخرج من السجن ممنونا عليه بعفو؟

قال يوسف:

ـ ارجع إلى الملك وسله أن يتعرف أمر هؤلاء النسوة اللآتي قطعن أيديهن وأخذت ظلما بجريرتهن ـ الجريرة: الذنب والجناية ـ ليظهر أمرى قبل أن أغادر السجن وتعرف قضيتى قبل أن يفصل فيها بالعفو.

فعاد نبو الساقى إلى الملك.. فأهم الريان بن الوليد أمر يوسف وشغل باله ذكر النسوة .. فأحضرهن بين يديه وسألهن:

ـ ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾[1]؟

فما وجد الإنكار إلى قلوبهم سبيلا ولم يستطع الكذب أن يسبق إلى ألسنتهن فقلن: ـ حاش لله ماعلمنا عليه من سوء وماخبرنا فيه إلا فتى عفيفا كريما أمينا غير متهم فى رأى ولا عفة.

فقالت امرأة العزيز:

ـ ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وإنه لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2] لقد طلبته فامتنع وكان لسيده ـ أظفر أو قطفير ـ حافظا ولزوجى وفيا.

قال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ رحم الله أخى يوسف: لو أنا أتانى الرسول بعد طول الحبس لأسرعت الإجابة حين قال «ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة»(رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد وابن المنذر عن الحسن مرسلا).

وقال خاتم النبيين ﷺ:

ـ رحم الله يوسف : أن كان لذا أناة حليما، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعا(رواه ابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة).

وقال ﷺ: **ـ عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أرسل إليه ليستفتى فى الرؤيا، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبت لصبره وكرمه والله**

---

(١) يوسف : ٥١ .   (٢) يوسف : ٥١ .

يغفر له أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب، ولولا الكلمة لما لبث فى السجن حيث يبتغى الفرج من عند غير الله عز وجل (رواه الطبرانى في الكبير وابن مردويه عن عبد الله بن عباس).

ولما بلغ يوسف قول النسوة وزليخا قال:

ـ ﴿**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ الله لاَيَهْدِى كَيْدَ الخَائِنِينَ**﴾(١).

فقال له جبريل عليه السلام:ـ ولا يوم هممت بها؟.

قال يوسف عليه السلام:

ـ ﴿ **وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارة بِالسُّوءِ**﴾(٢).

* يوسف عزيز مصر:

حين تحقق للريان بن الوليد براءةَ يوسف ونزاهة عرضه مما نسب إليه وأمانته قال:ـ ائتونى به أجعله من خاصتى وأهل مشورتى.

فأتى بيوسف ومثل بين يدى الملك فحادثه فوجده حصيفا أريبا وعاقلا رشيدا ورأى فضله وبراعته وعلم ماهو عليه من خلق فقال الريان بن الوليد:

ـ يايوسف إن ماتجملت به من هذا الخلق الكريم وماخلفته وراءك من ماض زاهر ومانطقت به عن حلم راجح وعقل حصيف كل ذلك رفع عندى مقدارك وأعلى مقامك﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِين أَمِين**﴾ (٣).

كان يوسف يعلم أن مصر مقبلة على أيام بلاء وأن النيل سينفحهم بالخير أعواما ثم يكف عنهم العطاء ويخلف عنهم الوعد أعواما وأنه لابد أن يلى أمورهم ويدبر شئونهم فقال يوسف:

ـ ﴿ **اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفيظٌ عَلِيمٌ** ﴾(٤).

قال رسول الله ﷺ:

ـ رحم الله أخى يوسف لو لم يقل: اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخر ذلك عنه سنة.

---

(١) يوسف: ٥١ .
(٢) يوسف: ٥١ .
(٣) يوسف: ٥١ .
(٤) يوسف: ٥٥.

فلما انصرمت السنة من يوم سأل يوسف الملك الأمارة دعاه الملك فتوجه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت وضرب عليه حلة من استبرق وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقة ثم قال له:ـ اخرج .

فخرج يوسف متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه وعزل الملك قطفير ـ العزيز ـ عما كان عليه وجعل يوسف مكانه.

وكان لملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام فسلم سلطانه كله إلى يوسف . . وهلك قطفير . . فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز . . فلما دخل عليها قال:

ـ أليس هذا خيرا مماكنت تريدين؟

قالت زليخا:

ـ أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى وكان صاحبي ـ العزيز ـ لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبتني على نفسي.

ووجدها يوسف عذراء . . فأصابها يوسف فولدت له : افرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف.

وقيل . . إن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن فذهب مالها وعمى بصرها بكاء على يوسف فصارت تتكفف الناس فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه فقيل لها:

ـ لو تعرضت له لعله يسعفك بشيء،

وقيل لها: ـ لا تفعلي فربما ذكر بعض ماكان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك.

فقالت راعيل:ـ أنا أعلم بخلق حبيبي منكم.

ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه قامت فنادت بأعلى صوتها:

ـ سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم .

فتساءل الصديق: ـ ماهذه؟

فأتوا بزليخا . . فقالت:

ـ أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمي وأرجل جمتك ـ الجمة: شعر الرأس ـ بيدى وتربيت فى بيتى وأكرمت مثواك لكن فرط مافرط من جهلى وعتوى فذقت وبال أمرى فذهب مالى وتضعضع ركتى وطال ذلى وعمى بصرى وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم أتكفف الناس فمنهم من يرحمنى ومنهم من لا يرحمنى وهذا جزاء المفسدين.

فبكى يوسف بكاء شديدا .. ثم قال لها:

ـ هل بقيت تجدين مماكان فى نفسك من حبك لى شيئا؟

قالت راعيل: ـ والله لنظرة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا بحذافيرها.. لكن ناولنى صدر سوطك.

فناولها الصديق فوضعته على صدرها فوجد للسوط فى يدها اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها.. فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا:

ـ إن كنت أيما تزوجتك وإن كنت ذات بعل أغنيناك.

فقالت راعيل لرسول الصديق:

ـ أعوذ بالله أن يستهزىء بى الملك.. لم يردنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقير؟

فعاد رسول الصديق إليه وأعلمه بمقالة زليخا.. فلما ركب يوسف فى الأسبوع الثانى تعرضت راعيل له فقال لها: ـ ألم يبلغك الرسول؟

قالت راعيل: ـ قد أخبرتك أن نظرة واحده إلى وجهك أحب إلى من الدنيا ومافيها.

فأمر الصديق بها فأصلح من شأنها وهيئت ثم زفت إليه فقام يوسف يصلى ويدعو الله وقامت راعيل وراءه فسأل الخالق القادر أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها فرد الله الذى يقول للشىء كن فيكون عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن مما كانت يوم راودته عن نفسه. إكراما ليوسف عليه السلام لما عف عن محارم الله فأصابها فإذا هى عذراء فسألها نبى الله فقالت:

ـ إن زوجى ـ العزيز ـ كان عنينا لا يأتى النساء وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف.

وعاش يوسف عليه السلام وراعيل فى خفض عيش فى كل يوم يجدد الله لهما خيرا.

وولدت راعيل ليوسف ولدين: افرائيم ومنشا.

وألقى الله عز وجل فى قلب نبيه يوسف عليه السلام من محبة راعيل أضعاف ماكان في قلبها فقال لها ذات يوم:

ـ ماشأنك ؟ لا تحبيننى كما كنت فى أول مرة؟

قالت زليخا:ـ لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء.

وكان يوسف نعم الوزير اليقظ والمولى الفطن الأريب فقد بنى الأهراء وأعد المخازن وملأها بالغلال والخيرات الكثيرة حتى إذا ما أقبلت السبع الشداد استقبلها أهل مصر آمنين فلم تغير لهم حالا ولم تنل منهم شيئا.. ولكن القحط امتد إلى ماجاور مصر من البلدان ومس ما حولها من الأقطار حتى وصل إلى كنعان حيث يقيم يعقوب بن إسحاق وأبناؤه الإسباط ـ فى فلسطين ـ

وذاع ذكر يوسف فى مصر وامتد وعم اسمه إلى الأصقاع وشاع بين الناس أن بمصر وزيرا حكيما يحمل بين جنبيه نفسا كريمة قد أعد عدته للقحط والجدب والجوع فلم يدق لأهل مصر عظما ولم يأكل منهم لحما وأنه يوزع الحنطة بين الناس بميزان العدل ويقضى حوائجهم بأقوم الموازين لا يفرق بين شعب ولا بين قطر وقطر.

فقال يعقوب بن إسحاق عليه السلام لبنيه:

ـ يابنى إن الجدب عمنا والقحط يكاد يأتى علينا فهلم شدوا ركائبكم واعملوا فى السير نياقكم وأقصدوا هذا العزيز الذى حملت إلينا الركبان أخباره وتناقل الناس أحاديثه وطبق ـ عم ـ اسمه السهل والجبل والبدو والحضر لكن أتركوا أخاكم بنيامين أتعزى ببقائه عن فراقكم وأسكن إليه حتى يعود جمعكم ويلتئم شملكم والله كالئكم وراعيكم وهاديكم ومبصركم.

وانطلق أبناء يعقوب من فلسطين وولوا وجوههم شطر مصر.. كانوا عشرة نفر.

ولما دخلوا على يوسف فى أبهته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم وهم

لا يعرفونه ـ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ـ؟ولكن يوسف كان حازما حكيما فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه والإفصاح عن أمره بل حاول أن يصل إلى مافي نفوسهم ويعرف مكامن أسرارهم وماخفى عليه من أخبارهم واحتجب من أحوالهم بأسلوب الحكيم ومنطق الحاذق الحصيف . .

فآواهم وأكرم وفادتهم وأحسن ضيافتهم . .ثم دعاهم إلى حضرته وقال لهم :

ـ لقد أكرمتكم ومن حقى أن أسألكم وأتعرف أحوالكم . . أخبرونى ماأمركم؟ فإنى أنكر شأنكم .

قالوا :ـ نحن قوم من أرض الشام .

فتساءل الصديق :ـ فما جاء بكم؟

قالوا :ـ جئنا نمتار طعاما .

قال يوسف عليه السلام :ـ كذبتم أنتم عيون ـ جواسيس ـ علينا من ملككم كم أنتم؟

قالوا :ـ عشرة :

قال الصديق :ـ أنتم عشرة آلاف كل رجل منكم أمير ألف فأخبرونى خبركم .

قالوا :ـ إنا أخوة بنو رجل صديق وسلالة نبى كريم ورسول عظيم وإنا كنا إثنى عشر وكان أبونا يحب أخا لنا وأنه ذهب معنا إلى البرية ـ الصحراء ـ فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا .

فتساءل يوسف عليه السلام :ـ فالى من سكن أبوبكم بعده ؟

قالوا :ـ إلى أخ لنا أصغر منه .

قال يوسف عليه السلام :

ـ فكيف تخبرونى أن أباكم صديق وهو يحب الصغير دون الكبير؟ قد يكون حقا ماتقولون ولكن لاوزن لقول لم يعزز ببينة أو يدعم بشاهد فأقيموا عندى البينة أو فأتوا بالشاهد حتى أطمئن لحقيقة حالكم وأسكن لصحة أقوالكم .

قالوا :ـ أيها العزيز إنا فى غربة عن بلادنا وإنك تكلفنا محالا أن نأتى لك هنا

بمن يعرفنا أو يشهد بصحة أقوالنا ولكن التمس لنا غير هذا المخرج وشيئا غير هذا السبيل.

قال الصديق:

ـ إنى سأجهزكم بجهازكم وأوقر ـ أثقل ـ بالميرة ـ الطعام ـ ركائبكم على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذى خلفتموه عند أبيكم وأزيدكم حمل بعير فى غلاتكم.. هذا هو شرطى فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ـ تقربوا بلادى أبدا ـ

قالوا:ـ سنراود أبانا وسنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وأمر يوسف عليه السلام غلمانه أن يوفوا لهم الكيل وأن يدسوا لهم فى رحالهم البضاعة التي حملوها ـ كان البيع بنظام المقايضة ـ والفضة التى جاءوا يبتاعون بها ليكون ذلك أدعى لرجوعهم مرة أخرى.

ولما رجع بنو يعقوب عليه السلام إلى أبيهم قالوا:

ـ يا أبانا إن ملك مصر أكرمنا كرامة لو كان رجلا من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقد أكرم وفادتنا ووفى لنا الكيل وأنزلنا خير منزل ولكنه أخذ علينا عهدا وشرطا ألا يكيل لنا حتى نأتيه بأخينا وقال: ائتونى بأخيكم هذا الذي عطف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك وغدا ستفرغ الميرة ـ الطعام يمتاره الإنسان ـ ونحتاج إلى غيرها فأرسله معنا ليكون معينا لنا على الكيل مساعدا لنا فى الرفد ـ العطاء ـ

قالت امرأته:ـ هل نسيت مافعلوه بيوسف؟

قال يعقوب عليه السلام:ـ لن آذن لكم بسفره ـ بنيامين ـ ولن أستريح لفراقه وهل ترونني آمنكم كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ فأصرفوا عن كيدكم وأكفونى شركم.

وفتحوا متاعهم وفتشوا رحالهم فإذا بضاعتهم قد ردت إليهم وفضتهم قد عادت معهم. فرجعوا إلي أبيهم مسرعين وقالوا فى فرح:

ـ يا أبانا ما كذبناك حين زعمنا أننا لقينا عزيزا وافر الفضل وماخدعناك حينما طلبنا أن تأذن لنا بأخينا بنيامين فهذه بضاعتنا قد ردت إلينا شاهدة على كرم العزيز

ومروءته فأرسل معنا أخانا وسنفديه بأرواحنا ونزف عليه بأجنحتها .

وتشاور يعقوب مع زوجه . . كانت حاجتهم إلى الميرة ماسة ورغبة أبنائه إلى العودة إلى مصر أكيدة وأنهم أخذوا على أنفسهم عهدا فلن ينقضوه وأن العزيز قد شرط لعودتهم أن يحضروا له أخاهم فلن يخلفوه. . فأذن يعقوب عليه السلام لأبنائه ببنيامين على أن يأخذ عليهم عهدا أكيدا وشرطا وثيقا أن يأخذوه ويأتوا به سليما معافى إلا أن ينزل بهم قدر لم يك فى الحسبان أو يفاجئهم مكروه وأخذوا على أنفسهم الميثاق ووكدوا الأيمان وقالوا:

ـ والله على ما نقول وكيل.

فلما تهيأوا للرحيل قال لهم يعقوب عليه السلام.

ـ إذا أتيتم ملك مصر فأقرءوه منى السلام وقولوا له: إن أباءنا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا .

وقدموا على العزيز ومعهم أخوه بنيامين شقيقه فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان واختلى بأخيه بنيامين فأجلسه معه على مائدته ثم قال:

ـ لينزل كل اثنين منكم بيتا وهذا لاثانى له فيكون معى .

فبات بنيامين عند الغزيز . . فقال له :ـ أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الذى هلك؟

قال بنيامين:ـ من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل . . لقد نسيت أن أخبرك أن أبانا طلب منا أن نقرئك السلام ونخبرك أنه يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا.

فبكى يوسف عليه السلام . . وقام إلى بنيامين وعانقه وقال:

ـ إنى أنا أخوك الذى تنشده وتهتف باسمه وتتلهف لرؤيته تقلبت بى صدوف ورمتنى صروف ـ نوائب الدهر ـ ولقيت من كيد أخوتك ألوانا وتحملت من غدرهم أحزانا وأسقاما وابتليت بعدهم بمحنة وأصبت بفتنة ولكنى صبرت وجاهدت حتى أبدلنى الله كما ترى نعيما ببؤس وعزا بذل وغنى بفقر وكثرا بقل. . فأكتم عن أخوتك هذا الخبر وأحجب عنهم هذا السر.

وقرت عين بنيامين وسكنت أحزانه وغدا يتقلب فى نعيم أخيه يوسف وعزه.

وانقضت أيام الضيافة وأجمع - عزم - بنو يعقوب الرحيل فأراد العزيز أن يعمل لهم مكرا ويحدث بهم أمرا فأمر غلمانه أن يجهزوهم بجهازهم وأن يدسوا السقاية أو الصواع - وعاء جعل للكيل - فى رحل بنيامين.

وقبل أن يركبوا نياقهم ارتفع صوت مناد يناديهم:

- أيها الركب المزمع سفرا المجمع رحيلا أنيخوا نياقكم وأنزلوا متاعكم فما أنتم إلا سارقون . . قفوا.

فدهشوا وذهلوا وأقبلوا على المنادى يقولون:

- ماهذا الهجر - الفحش من القول - الذى تنطق به والفرية - التهمة - التى ترمينا بها؟

فقال رسول العزيز:- ألم نكرم ضيافكم ونوفكم كيلكم ونحسن منزلكم ونفعل بكم مالم نفعل بغيركم وأدخلناكم بيوتنا وصار عليكم حرمه؟

قالوا:- بلى ولكن ماخطبك وما الذى فقد منكم؟

قال: سقاية الملك فقدناها - كانت من الفضة - ولايتهموا عليها غيركم فارجعوا عما عزمتم عليه ولا بأس عليكم ولا حرج فى أمركم ومن جاء به منكم فله حمل بعير نافلة - زيادة - وأنا زعيم - ضامن - لكم بهذا الشرط كفيل بهذا الحمل.

قال بنو يعقوب عليه السلام:

- ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأَرْضِ وما كُنَّا سَارِقِينَ﴾[1].

فتساءل رسول العزيز:

- إننا لا نتجنى عليكم ولكن ماحكمكم لو وجدنا الصواع عندكم مستقرا فى رحالكم؟

قال بنو يعقوب عليه السلام:- إن لنا شرعا ودينا وذمة وعهدا فمن وجدتموه فى رجله فخذوه أسيرا عندكم عبدا لكم ذلك هو شرعنا وهذا هو عهدنا وأنا على يقين من براءة ذمتنا وطهارة أعراقنا.

---

(١) يوسف : ٧٣ .

فبدأ يفتش أوعيتهم وعاء وعاء . .حتى إنتهى إلى وعاء بنيامين فوجد السقاية مستقرة بين طياته فاستخرجها منه وأشهرها فى وجوههم . . فذهلوا وأطرقوا حياء .

ولما استخرجت السقاية من رحل بنيامين انقطعت ظهور بنى يعقوب وقالوا:

ـ يابنى راحيل مايزال لنا منكم بلاء؟ متى أخذت هذا الصواع؟

قال بنيامين:ـ بل بنو راحيل الذين لايزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع الدراهم فى رحالكم.

فقالوا:ـ لا تذكر الدراهم فتؤخذ بها.

فلما دخلوا على يوسف دعا بالصواع فنقر فيه ثم أدناه من أذنه ثم قال:

ـ إن صواعى هذا ليخبرنى أنكم كنتم إثنى عشر رجلا وإنكم إنطلقتم بأخ لكم فبعتموه.

فلما سمع بنيامين قول أخيه يوسف قام فسجد ليوسف وقال:

ـ أيها الملك سل صواعك هذا عن أخى أين هو؟

فنقر يوسف عليه السلام الصواع ثم قال:ـ هو حى وسوف تراه.

فقال بنيامين:ـ فاصنع بى ماشئت فإنه إن علم بى فسوف يستنقذني،

فدخل يوسف عليه فبكى ثم توضأ ثم خرج فقال بنيامين:

ـ أيها الملك إنى أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرق الصواع فجعله فى رحلى؟

فنقره وقال:ـ إن صواعى هذا غضبان وهو يقول: كيف تسألنى: من صاحبى فقد رأيت مع من كنت؟

ثم أردف:ـ عليكم بالشرط والشرط أملك ـ مستحق أن ينفذ ـ فدعوا هذا الذى وجدنا عنده الصواع ونأخذ حقنا منه.

فقال بنو يعقوب عليه السلام:

ـ ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾[١].

---

(١) يوسف : ٧٧ .

يعنون بذلك يوسف قد سرق صنما لجده أبى أمه راحيل فكسره وألقاه فى الطريق فكان أخوته يعيبونه بذلك واتهمته عمته بسرقه منطقة إسحاق ـ حزامه ـ وأحتبس يوسف أخاه بنيامين فلما رأى بنو يعقوب أنه لا سبيل إلى تخليصه قالوا:

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فقال لهم يوسف عليه السلام:

ـ ﴿مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ من وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ﴾ [2].

ولما أستحكم فى أبناء يعقوب اليأس من قبول العزيز لشفاعتهم ونفضوا الأكف من رواج اقتراحهم خلصوا إلى أنفسهم يتناجون ويتشاورون قال يهوذا:

ـ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم وأستحلفكم أيمانا أن تأتوه بأخيكم وأن تبروا له بأيمانكم . . فما نقول اليوم؟ وهانحن قد فقدنا بنيامين وحنثنا فى اليمين إن جرح يوسف فى كبد أبيكم لم يندمل ـ لم يبرأ ـ وأن دموعه من عينيه لم تنقطع ونحن قد جنينا فى الأولى وهانحن أولاء نجنى فى الثانية﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْيَحْكُمَ اللهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ الحَاكمينَ * ارْجعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا: يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَاكُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِى كنا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وإِنَّالَصَادِقُونَ﴾[3].

ورجعوا إلى يعقوب عليه السلام وقد تخلف يهوذا ولما علم يعقوب خبر بنيامين قال لابنائه:

ـ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جُمَيلٌ ﴾[4] صبر لا جزع فيه على مانالنى من فقد ولدى عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ـ يوسف وبنيامين ويهوذا ـ

وأعرض يعقوب عليه السلام عن أبنائه فقالت زوجه:

ـ ألم أحذرك مكرهم لقد فعلوها في الأولى وهاهم قد فعلوها فى الثانية.

فقال يعقوب عليه السلام:

ـ ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾ [5].

---

(١) يوسف: ٧٨ .　(٢) يوسف: ٧٩.　(٣) يوسف: ٨٠ ـ ٨٢ .

(٤) يوسف: ٨٣ ..　(٥) يوسف :٨٤

فقال بنو يعقوب عليه السلام لأبيهم:

ـ تاالله لاتزال تذكر يوسف فلا تفتر من حبه أوذكره حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل من حبه وذكره هرما باليا أوتموت.

فقال لهم يعقوب عليه السلام :

ـ ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوَ بَثِّيَ وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾[1] لاإليكم وأعلم من الله مالا تعلمون من صدق رؤيا يوسف وإنى وأنتم سنسجد له .

(قيل :ـ مابلغ وجد يعقوب على ابنه؟

قال :ـ وجد سبعين ثكلى.

قيل :ـ فما كان له من الأجر؟

قال :ـ أجر مائة شهيد

وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل ولانهار).

ودخل جار على يعقوب فسأله :

ـ يايعقوب مالى أراك قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟

قال يعقوب عليه السلام؟

ـ هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف وذكره .

فأوحى الله عز وجل إليه :ـ يايعقوب أتشكونى إلى خلقى؟

قال يعقوب عليه السلام :ـ يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها ـ فاغفر ـ لى

قال الله عز وجل :ـ فإنى قد غفرت لك.

فكان يعقوب بعد ذلك إذا سئل قال :

ـ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

ولم يزل يعقوب بن إسحاق يبكى ولم يفارق الحزن قلبه حتى ذهب بصره. .
ثم أمر يعقوب بنيه الذين قدموا عليه من مصر بالرجوع إليها وقال لهم :

ـ ﴿ إذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنَ رُوحِ اللهِ﴾ [3] يفرج به

---

(١) يوسف : ٨٦ . (٢) يوسف : ٨٦ . (٣) يوسف : ٨٧ .

عنا وعنكم الغم الذى نحن فيه.

فرجعوا إلى مصر مرة ثالثة..

* عفو يوسف عن اخوته:

وقف بنو يعقوب أمام يوسف عليه السلام ترهقهم ذلة ويحيطهم انكسار ذلة العزيز وانكسار الكريم.. ثم قالوا:

- أيها العزيز هاقد رجعتنا الأيام إليك لنقف موقف الضراعة والإستكانة بين يديك وللأيام تقلبات وللدهر نكبات وقد جئناك ببضاعة مزجاة - قليلة كاسدة - إذ الحال رقيق والعيش نكد فإن شئت تصدقت بما يقيم الأود ويصلح معوج العود وإن أحسنت إلينا بتسريح أخينا بنيامين فإنك تكون قد خففت عن أبيه لواعج وأشجانا.

لما سمع يوسف عليه السلام كلام أخوته غلبته نفسه وأجهش بالبكاء وإذا كان الله عز وجل قد بلغ بقصة يوسف ويعقوب أسمى ما يطمح إليه المثل الأعلى من الإيمان بالقضاء والصبر على الشدة فقد آن ليوسف أن يعلن لأخوته عن نفسه ويكشف لهم عن حاله فسألهم:

- ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَافَعَلْتُم بِيُوسُف وَأَخِيه إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُون ﴾ [1]؟

كيف ينسون يوم أن كانوا فى ميعة الحداثة وغرارة الصبا زين لهم الهوى ووسوس الشيطان أن يكيدوا ليوسف فألقوا به فى الجب؟ لقد بكى وتوجع وأستشفع فلم يقبلوا منه شفاعة ولم تأخذهم فيه رحمة وتركوه فى الجب وحيدا ضعيفا تلهوبه الأقدار.

نظروا إلى يوسف عليه السلام فى عجب فقد خالجهم الشك فى أمره إنه يذكر أشياء وقعت من أعلمه بها؟ من قصها عليه؟ أيكون بنيامين؟ ولكن بنيامين وكل الناس فى أمر يوسف سواء إن بنيامين لا يعرف شيئا عن حقيقة أمره ولا حادث القائه فى الجب؟

تساءل بنو يعقوب عليه السلام:- ها أنت يوسف؟

قال الصديق وهو يشير نحو أخيه بنيامين:- ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى ﴾.

اعتذر بنو يعقوب وقالوا ليوسف عليه السلام:

---

(١) يوسف: ٨٩.

ـ ﴿تَا الله لقد آثَرَكَ الله عَلَيْنَا وَإن كُنَّا لَخَاطِئِين﴾.

تلجلج الكلام بين أشداقهم وتمنوا لو انشقت الأرض وابتلعتهم ماذا سيفعل يوسف بهم ؟ ركبهم الخوف؟

ولكن يوسف عليه السلام كان أكرم نفسا من أن يطيل خوفهم وأوسع صدرا من أن يكافئهم بزلتهم فهم مابرحوا اخوته وبنى أبيه وإن تعاونوا على قتله والكيد له ولأخيه بنيامين لقد أخذته رقة ورحمة وشفقة بإخوته فلم يذكرلهم ذنبا وقال لهم:

ـ ﴿لاَ تثريبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ الله لكم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحمينَ﴾ [١].

لم يلق يوسف على اخوته لوما بل حمد الله عز وجل بأن جمع بينه وبين أخوته بعد تفرقهم . . ثم سألهم :ـ مافعل أبى بعدى؟

قال اخوة يوسف :ـ لما فاته بنيامين عمى من الحزن

فقال الصديق:

ـ ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلقوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأتونِي بِأهلِكُمْ أَجْمَعين﴾[٢].

فلما خرجت العير من مصر هاجت ريح حملت ريح يوسف إلى يعقوب عليه السلام على الرغم من أن كان بين مصر وكنعان مسيرة ثمانية أيام ـ ثمانون فرسخا ـ فلما أحس يعقوب عليه السلام بهذ الريح صاح بملء قلبه وجوارحه:

ـ ﴿ إنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[٣].

لم يكن يعقوب عليه السلام مخطئا فى وهمه فقد أستأذنت الريح بأن تأتى يعقوب عليه السلام وهو بأرض كنعان بريح يوسف عليه السلام حين بعث بالقميص من مصر إلى أبيه قبل أن يأتيه البشير .

قال من حضره من ولده:ـ تاالله إنك من ذكر يوسف وحبه ﴿لَفِي ضَلالِكَ الْقَديمْ ﴾[٤]ـ يعنون فى خطئه القديم ـ

---

(١) يوسف :٨٩.
(٢) يوسف : ٩٣.
(٣) يوسف : ٩٤ .
(٤) يوسف : ٩٥ .

* لقاء يوسف بأبويه واخوته.

عاد يعقوب عليه السلام يخبر من حوله أنه يشم ريح يوسف ولكنهم سخروا منه فقال:

ـ مازلتم تسفهونى فتنسبونى إلى الهرم وذهاب العقل؟

وجاء البشير ـ البريد الذى أبرده يوسف إلى يعقوب ـ وكان يهوذا بن يعقوب فألقى قميص يوسف على يعقوب فإذا بصره قد عاد ورشده قد ثاب فقال يعقوب لبنيه:

ـ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنى أعلمُ مِنَ الله مَالا تَعْلَمُونَ﴾[1] ؟

كان على يقين أن الله سيرد إليه إبنه يوسف . . ثم أردف:

ـ ﴿ ألم أقل لكمُ إنِّى لأَجْدُ رِيحَ يُوسَفَ لَوْلاَ تُفَنِّدُونِ﴾ [2]؟

فقال بنو يعقوب مترفقين:

ـ ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[3].

قال يعقوب عليه السلام:

ـ ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ [4].

ثم طلب يعقوب عليه السلام من زوجه وأبنائه أن يتهيأوا للرحيل إلى مصر فقال:

ـ زموا ـ أعدوا للسفر ـ ابلكم وأجمعوا ارادتكم وهيا بنا إلى ساحة العزيز.

ولما دنا يعقوب عليه السلام وزوجه وأبناؤه من مصر أخبر العزيز بذلك فخرج يوسف عليه السلام يتلقاه وركب معه أهل مصر وكانوا يعظمونه. فلما دنا يعقوب عليه السلام من العزيز وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على إبنه يهوذا فنظر يعقوب عليه السلام إلى الخيل والناس.

نظر يعقوب عليه السلام إلى الخيل والناس فقال:

ـ يايهوذا هذا فرعون مصر؟

---

(١)يوسف : ٩٦

(٢) يوسف: ٩٤ .

(٣) يوسف: ٩٧ .

(٤) يوسف: ٩٨.

فقال يهوذا :ـ لا هذا ابنك يوسف

فلما اقترب كل منهما من صاحبه بدأ يوسف أباه السلام. . فمنع ذلك وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل فقال:

ـ السلام عليك يامذهب الأحزان.

فقال يوسف عليه السلام :ـ ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ**﴾[1].

ورأى يوسف عليه السلام أبويه فى ساحته وحولهما أحد عشر من أخوته والجميع يسجدون له معظمين ويقفون بين يديه خاشعين فرفع يديه إلى السماء شاكرا أنعمه وذاكرا فضله فرفع أبويه على العرش وقال:

ـ ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِّى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ**﴾[2].

سئل رسول الله ﷺ:ـ من أكرم الناس يانبى الله؟

قال الهادى البشير ﷺ:

ـ **الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** (أخرجه البخارى كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة إسحاق والإمام أحمد عن ابن عمر)

وقال الذى لاينطق عن الهوى ﷺ:

ـ **أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** (رواه الطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن مسعود).

وقال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ **أكرم الناس يوسف نبى ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله** (أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة).

---

(١) يوسف: ٩٩

(٢) يوسف : ١٠١.

* يعقوب عليه السلام وأولاده يدخلون مصر.

ودخل مصر من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين: يعقوب بن إسحاق وأولاده وهم: يوسف، يهوذا، روبيل، لاوى، زبالون، شمعون، يشحر ـ يسجرة ـ دنيا، دانا ـ دان وأشر ـ ، ديفتابيل ـ نفثالى ـ، جاد، بنيامين.

* وفاة نبى الله يعقوب عليه السلام بمصر.

قبض الله عز وجل يعقوب ببلاد مصر وهو ابن مائة وأربعين سنة فحمله يوسف عليه السلام فدفنه ببلاد فلسطين عند تربة إبراهيم وإسحاق عليهما السلام.

* وفاة يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وقبض الكريم ابن الكريم ابن الكريم بمصر وله مائة وعشرون سنة ـ وقيل وله مائة وعشرسنين ـ وجعل فى تابوت من الرخام وسد بالرصاص وطلى بالأطلية الدافعة للهواء والماء وطرح فى نيل مصر نحو مدينة منف وهناك مسجده.

وقيل : إن يوسف عليه السلام أوصى أن يحمل فيدفن عند قبر أبيه يعقوب فى مسجد إبراهيم عليه السلام.

* موسى .. وهارون عليهما السلام.

ولد موسى بن عمران بعد أخيه هارون ـ أخوه لأمه ـ بعام فهارون أسن من موسى بسنة.

ولما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون طلب كليم الله عليه السلام من ربه فقال:

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِرْ لِى أَمْرِى * وَاحْلُلْ عُقْدَةَ مِن لِسَانِى * يَفْقَهُوا قَوْلِى * وَاجْعَل لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى * هَارُون أَخِى * أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى﴾[1].

فاستجاب السميع البصير لدعاء نبيه وشد عضده بأخيه هارون وبعثهما إلى فرعون.

ـ **﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾** [2].

---

(١) طه آية: ٢٥ ـ ٣٢ .

(٢) طه: ٣٦.

وانطلق موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون فخالفهما فأغرق الله عز وجل فرعون وأمره تبارك وتعالى بالخروج ببنى إسرائيل إلى التيه وكان عددهم ستمائة ألف وكانت الألواح التى أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها كتابة بالذهب فلما نزل من الجبل رأى قوما من بنى اسرلئيل قد اعتكفوا على عبادة عجل لهم فارتعد وسقطت الألواح من يده فتكسرت فجمعها وأودعها تابوت السكينة مع غيرها وجعله فى الهيكل وكان هارون كاهنا وهو قيم الهيكل ـ وقبض الله هارون فى التيه ـ قبل وفاة موسى بسبعة أشهر وقيل: ان موسى قبض بعد وفاته بثلاث سنين ـ قيم الزمان ـ وأتم الله عز وجل نزول التوراة على موسى وهو فى التيه.

وقبض وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة ـ وقيل ابن مائة وعشرين ـ وقبض موسى عليه السلام وهو ابن عشرين ومائة سنة ولم يحدث لموسى ولالهارون شىء من الشيب ولا حالا عن صفة الشباب.

*** رؤيا فرعون:**

تنفس الصبح فبعث أشعته خافتة ذهبية توسوس للأرض الخضراء بسر فنهض الوليد بن مصعب بن معاوية من نومه مفزعا وطلب من خدمه وحراسه أن يحضروا الكهنة وأهل السحر والقافة والحازة.

فلما حضر أهل الكهانةوالمنجمون والسحرة قال لهم:

ـ لقد رأيت رؤيا روعتنى.

فقالوا:ـ ماذا رأى الإله المعبود؟

قال فرعون مصر:ـ رأيت فى منامى أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى إشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل وأخربت بيوت مصر . . أفتونى فى رؤياى.

قال أهل الكهانة والمنجمون:

ـ يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون بيت المقدس ـ رجل يكون على وجهه ـ يديه ـ هلاك مصر ويزيل ملكك ويغلبك على سلطانك ويبدل دينك.

ركب الغضب والجزع والغيظ الوليد بن مصعب. أيرضى لغلام من بنى إسرائيل أن يسلب ملكه؟ لم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة ولا أقسى قلبا ولا أسوأ ملكة لبنى إسرائيل منه. لقد جعلهم خدما وخولا وصنفهم فى أعماله فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنف يزرعون له ومن لم يكن منهم فى صنعة له من عمله فرض عليه الجزية . . لقد سامهم سوء العذاب.

نظر منجمو فرعون وحزاته إليه وكأنهم ينتظرون قوله . . فقال:

ـ يقتل كل مولود يولد من بنى إسرائيل من الغلمان. ولا يولد لهم جارية إلا تركت.

ثم قال فرعون لرءوس القبط:

ـ انظروا مملوكيكم ـ مماليككم ـ الذين يعملون خارجا فأدخلوهم واجعلوا بنى إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة.

وأمر الفرعون بنساء بنى إسرائيل يستحيين . وجمع القوابل من نساء مملكته فقال لهن:

ـ لا يسقطن على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلاقتلتموه.

فكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان ويأمر بحبالى بنى إسرائيل فيعذبن حتى يطرحن مافى بطونهن .

وكان الوليد بن مصعب يأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار ـ السكاكين ـ ثم يصف بعضه إلى بعض ثم يأتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيوقفن عليه فيحز أقدامهن حتى أن المرأة منهن لتمصع بولدها ـ تلقيه ـ فيقع بين رجليها فتظل تطؤه تتقى به حز القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها. وتمادى الوليد بن مصعب في غيه وعلا فى الأرض وأسرف فى قتل غلمان بنى إسرائيل فدخل رءوس القبط وقالوا:

ـ أفنيت الناس وقطعت النسل وإنهم خولك وعمالك .

لقد خشى القبط أن يفنى بنى إسرائيل فيقومون هم بما كان يقوم به بنو إسرائيل من بناء وحرث وزرع وأعمال شاقة. . فقال فرعون:

ـ حتى لا يقع العمل على غلمانكم نذبح أبناء بنى إسرائيل سنة ويتركوا سنة

وسرى الخبر فى كل مكان وطار الخبر إلى بيت يقع على شاطىء النيل ففرحت يوخايذ أو يوخايد أويوكابد أو يوجانذ أو أيارخا أو أياذخت لقد كانت على وشك أن تضع حملها . . ووضعت مولودا سمته هارون كانت سعيدة عندما رأته ينمو ويكبر ويحبو بين جنبات بيتها . . لقد ولد هارون فى السنة التى لا يقتل فيها أبناء بنى إسرائيل . . ثم حملت يوكابد.

*** ابن فرعون:**

وهرع أهل الكهانة ومنجمو فرعون وحزاته إلى الوليد بن مصعب فقالوا له:

- أيها الملك العادل سليل الآلهة تعلم أنا نجد في علمنا أن مولودا من بنى إسرائيل قد أوشك زمانه الذى يولد فيه يخرجك من أرضك ويبدل دينك.

أدرك فرعون أن ذلك المولود قد تقارب مولده فقال:

- يقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل هذا العام.

وانطلق جنود فرعون يقتحمون الدور وبأيديهم السيوف اللامعة يقتلون كل وليد فى بنى إسرائيل وجلست يوكابد فى منزلها الكائن على شاطيء النيل وقد جاءها المخاض وقد حزنت من شأن ذلك الوليد لقد كاد الشيطان أن ينال من عزيمتها فراحت تستعيذ بالله منه. وبعثت ابنتها - مريم - إلى قابلة لتهيىء لها مثل مايكون فى هذه الحال فأقبلت القابلة.

وعلمت أم هارون أن فرعون ذبح سبعين ألف ولد من بنى إسرائيل فارتجف قلبها رعبا وجزعا لقد خافت أن يذبح جنود فرعون وليدها . . ورأت القابلة ظلال الخوف والرعب تكسو وجهها فأشفقت عليها وقالت لها:

- أعدك أن أكتم هذا الأمر.

ولما وضعت أم هارون . . حملت القابلة الوليد فاهتز قلبها رحمة له وأحبته ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾(١).

ولما غادرت القابلة دار أم هارون أبصرتها عيون - جواسيس - فرعون التى بثها فى كل مكان فاندفعوا نحو الدار لولا أن لمحتهم أخت هارون فقالت لأمها:

- أماه إن الذباحين بالباب.

---

(١) طه: ٣٩ .

وفى ذهول المفاجأة ألهم الله أم هارون فلفت الوليد فى خرقة وألقته فى جوف التنور ـ الفرن ـ دون أن تشعر بما فعلت فدخل الذباحون فلم يجدوا سوى يوكابد بادية السكينة والإطمئنان وإلى جانبها إبنتها وإبنها هارون . . لقد كانوا على وشك أن يظفروا بالوليد. . وسألوا أم هارون فى غلظة:

ـ ما أدخل عليك هذه القابلة؟

قالت يوجانذ فى هدوء:ـ هى مصافية ـ صديقة ـ لى دخلت على زائرة.

فانصرفوا وعيونهم وأيديهم القابضة على أسيافهم تتوعدها بزيارات مفاجئة. .

ودارت عينا يوكابد تبحثان فى لهفة عن وليدها فإذا بصوته ينبعث من جوف التنور . . فهرعت إليه وأخرجته وربما عجبها عندما رأته لم يمسسه أذى بفضل الله عز وجل .

ولما كانت دارها على شاطئ النيل فقد صنعت تابوتا من نبات البردى وربطته بحبل جعلت طرفه تحت فراشها فإذا رأت جنود فرعون مقبلين دفعت التابوت إلى النهر. . فإذا خرجوا من دارها جذبت طرف الحبل فأقبل التابوت وأرضعت وليدها.

ونشر فرعون عيونه فى المدينة يتفحصون الأطفال فجعل لا يولد لبنى إسرائيل وليد إلا ذبح فلا يكبر الصغير. وقذف الله فى مشيخة بنى إسرائيل الموت فأسرع فيهم ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾(١).

وصنعت يوكابد لوليدها تابوتا من الخشب ـ دعت نجارا فصنع لها ذلك التابوت ـ

وذات يوم استشعرت أم هارون خطرا خفيا يهدد وليدها فنظرت من فرجة الباب فبصرت جنود فرعون مقبلين فأيقنت أن وليدها هالك لامحالة فألهما الله تعالى أن ترضعه فأرضعته رضعة أودعتها من الحب والعطف والحنان والمشاعر المتوهجة ﴿وَأَوحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعيه فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْه فألقيه فِي الْيَمِّ وَلَاتَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

---

(١) القصص: ٤٠ (٢) القصص: ٧.

فوضعت يوكابد الوليد فى الصندوق الخشبى وقبلته وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه ثم أرسلته فذهب مع النيل.

ولما توارى التابوت عن عينى آيارخا أتاها إبليس اللعين فقالت فى نفسها:

ـ ماصنعت بابنى؟ لوذبح عندي فواريته وكفنته أحب لي من أن ألقيه بيدى إلى حيتان البحر ودوابه.

ثم قالت لأخته الكبيرة ـ مريم ـ:

ـ اخرجى وقصى أثره ـ اتبعى أثره إلى أين وصل وأى أيد تلقفته ـ

ذهب التابوت مع النيل، الموج يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار بيت فرعون . فخرج جوارى آسية بنت مزاحم امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فالتقطنه وحملنه إلى آسيه بنت مزاحم وظن أن فيه مالا فلما نظرت امرأة فرعون وقعت عليه رحمتها وأحبته حبا شديدا لم يلق مثلها منها على أحد ولما سمع الذباحون بأمر ذلك الطفل أقبلوا إلى آسية بنت مزاحم بشفارهم يريدون أن يذبحوه فقالت لهم:

ـ انصرفوا فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل فآتى فرعون فأستوهبه إياه فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم.

وذهبت آسية بنت مزاحم بذلك الوليد إلى زوجها فلم تزل تكلمه حتى تركه لها وقال:

ـ إنى أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل وأن يكون هذا الذى على يديه هلاكنا؟

قالت امرأة فرعون:ـ لقد وجدته الجوارى فى النهر بين الأشجار. . لقد سميته موسى ـ سمى موسى لأنهم وجدوه فى ماء وشجر والماء بالقبطية ـ مو ـ والشجر ـ شا ـ

وبكى موسى فأرسلت امرأة فرعون من حولها من كل أنثى لها لبن لتختار له مرضعا فجعل موسى كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت آسية بنت مزاحم أن يمتنع عن اللبن فيموت. فحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق مجمع الناس ترجو أن تصيب له مرضعا يأخذ منها. . فلم يقبل من أحد ثديا.

وأصبح قلب يوجانذ فارغا من الهم والأشفاق على وليدها﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾[1].

لقد أصبح فؤاد يوكابد فارغا من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾[2] أى صبرناها وثبتناها.

قالت يوكابد لابنتها:

ـ أطلبى أخاك هل تسمعين له ذكرا؟ أحى ابنى أم قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟

هل نسيت يوجانذ وعد الله الذى لا يخلف وعده؟ ﴿ أَلاَّ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]؟

وبصرت بموسى أخته عن جنب وأهل قصر فرعون لا يشعرون.. فقالت للجوارى:

ـ ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[4]؟

فأخذوها إلى قصر فرعون وسألوها:ـ وما يدريك مانصحهم له؟

هل شكوا فى أمرها ؟ فقالت ـ مريم ـ :نصحهم له وشفقتهم عليه.

فقالوا:ـ هل تعرفينه؟

قالت أخت موسى:ـ لا ولكن رغبتهم فى ظئورة الملك ورجاء منفعته.

فتلاشى شكوكهم . . وتساءلوا:ـ أين ذلك البيت؟

قالت أخت موسى:ـ ليس ببعيد.

* عودة موسى إلى أمه:

سيقت إلى ابن فرعون ـ موسى ـ المراضع لعله يقبل على واحدة منهن فيروى غلته ويشبع جوعته ولكنه رغم الجوع عاف المراضع هل أرادت أخت موسى أن تكون للفرعون من الناصحين.. كما زعمت؟

---

(١) القصص: ١٠ (٢) القصص: ١٠.

(٣) القصص: ٧. (٤) القصص: ١٢.

أم أن الرضعة التى أرضعته أمه قبل أن تقذفه فى اليم كانت كلها حب وحنان ومشاعر جعلته لاينساها؟ لقد عادت القدرة الآلهية تطوع قلوب الجوارى لسماع إقتراح أخت موسى؟ ماذا ستفعل أمه عندما تراه؟ ماذا ستقول الجوارى لها؟

ومضين إلي بيت يوجانذ ودخلوا عليها فلما وقع بصرها على إبنها بين يدى إحدى جوارى قصر فرعون كادت تصرخ فى فرح:

ـ ولدى.

ولكن إحدي الجوارى سألتها:ـ هل لك أن ترضعى ذلك الوليد؟

وقالت الأخرى:ـ لقد دلتنا طفلة عليك فإذا التقم ثديك أجزلت مولاتى امرأة فرعون لك العطاء.

أخذت أياذخت وليدها وهي لا تصدق عينيها وضمته إلى صدرها الواجف وقدمت إليه ثديها.. فالتقمه.

لقد وعدها العزيز الحكيم أن يرده إليها ويحفظه لها.. وقد تحقق وعده الحق.

أسرعت إحدى الجوارى إلى آسية بنت مزاحم فقالت لها مبشرة:

ـ لقد عثرنا على مرضعة قبل موسى ثديها.

ففرحت امرأة فرعون وقالت:ـ فلتحضر إلى القصر.

وعادت الجارية إلى يوجانذ فقالت لها:

ـ مولاتى امرأة الآله المعبود تريدك فى قصرها.

فلما قدمت أيارخا إلى قصر فرعون أحسنت آسية بنت مزاحم إليها وأعطتها عطاء جزيلا ـ وهى لا تعرف أنها أمه ـ

ولكنه لكونه قبل ثديها ـ لما وضعت أم موسى وليدها فى حجرها نزا إلى ثديها حتى امتلأ جنباه ريا ـ فتساءلت آسية بنت مزاحم:

ـ عجيب أمرك أيتها المرأة كيف رفض ابنى كل المرضعات وقبل ثديك.. بالذات؟

وكاد قلب يوجانذ أن يسقط فى قدميها.. بم تجيب؟ فسكتت لقد ذكرت ماكان الله وعدها فيه.. فقالت امرأة فرعون:

ـ امكثى ترضعى ابنى هذا فإنى لم أحب شيئا حبه قط.

فقالت يوجانذ:ـ لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا ألوه خيرا فعلت فإنى غير تاركة بيتى وولدى.

فوافقت آسية بنت مزاحم وأجزلت لأم موسى العطاء ـ قدمت إليها المال والهدايا والثياب ـ فحملته إلى بيتها راضية مرضية بعد أن أبدلها الله عز وجل بعد خوفها أمنا.

قال رسول الله ﷺ:

ـ مثل الذي يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها.

فلم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل ـ يوم وليلة ـ فسبحان الله الذي بيده الأمر ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وأنبته الله عز وجل نباتا حسنا.

ولما تحرك ابن فرعون قالت آسية بنت مزاحم ليوكابد:ـ أزيرنى ابنى.

فجاءت يوجانذ بموسى صبيا ففرحت زوجة فرعون وراحت تراقصه وتلعب به.. ثم ناولته زوجها وقالت له:

ـ خذه قره عين لى ولك.

فقال الوليد بن مصعب:ـ هو قرة عين لك ولا لى ـ وأما أنا فلا.. لا حاجة لى به ـ.

(يقول عبد الله بن عباس:ـ لو أنه قال: هو قرة عين إذا لآمن به ولكنه أبى.

ويقول ابن عباس:

ـ قال رسول الله ﷺ: والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما

---

(١) القصص: ١٣.

أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك).

فلما أخذ فرعون موسي إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها . . فصرخ الوليد بن مصعب:ـ

على بالذباحين . . هذا هو .

فأقبل الذباحون ومعهم السيوف المرهفة . . فقالت آسية بنت مزاحم:

﴿لاَ تَقْتُلُوه عَسى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [1] إنما هو صبي لا يعقل وإنما صنع هذا من صباه.

فقال الغواة من أعداء الله لفرعون:

ـ ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه يزعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل هذا صبى ـ موسى ـ ليذبح فإنه هو.

فتساءلت آسية بنت مزاحم:ـ مابدا لك في هذا الغلام الذى وهبته لى؟

فقال الوليد بن مصعب:ـ ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى؟

فقالت زوجه:ـ اجعل بينى وبينك أمرا يعرف الحق به .

فقال فرعون:ـ كيف؟

قالت آسية بنت مزاحم:

ـ قد علمت أنه ليس فى أهل مصر امرأة أحلى منى أنا أضع له حليا من الياقوت وأضع له جمرا ـ جمر نار ـ فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وإن أخذ الجمر فإنه صبى .

فاقتنع الوليد بن مصعب بقول امرأته وقال:ـ سأختبره.

فأخرجت آسية بنت مزاحم إلى ابن فرعون ياقوتها فوضعت لموسى طستا من جمر. فهم موسى أن يأخذ ياقوتة ولكن الله عز وجل بعث جبريل عليه السلام فطرح فى يده جمرة فطرحها موسى فى فيه فأحرقت لسانه وأصابته بلثغة﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[2] فانتزعتها زوجة فرعون منه وقالت للوليد بن مصعب:

---

(١) القصص: ٩.

(٢) القصص: ٨.

ـ ألا ترى؟ ألم أقل لك إنه طفل؟

* مؤمن آل فرعون:

كان شمعان رجلا قبطيا من آل فرعون ـ ابن عم فرعون ـ وكان يكتم إيمانه خوفا من بطش فرعون الذى تجاوز السلطان إلى ادعاء الألوهية والتسلط والقهر وكانت آسية امرأة فرعون تصيخ سمعها لما يقوله عن توحيد الله عز وجل وتميل بعقلها ووجدانها لصدق معتقده وكيف لا تتأثر بأراء مؤمن آل فرعون ـ كانت تسميه خيرا ـ وقد كانت في طفولتها لا تعبد بشرا ـ كانت غريبة عن أرض مصر يقال إنها كانت من بنات فارس اللواتي وقعن فى أيدى الفراعنة أثناء الحروب التى دارت بين النظامين الفرعونى والكسروى ـ وكانت تعرف حقيقة كذب فرعون ولم لاوهى التى تعايش الطاغوت وجبروته وتدرى مايدور فى خفايا قصر فرعون وعلاقته بكهان الهياكل والقائمين عليها؟ ولكن متى تظهر مكنون صدرها ومكنون قلبها من الإيمان ؟

ولحكمة يعلمها الله لم يرزق فرعون الولد.

* موسى ينزل أرض مدين:

أتمت يوجانذ رضاع إبنها موسى ثم أرسلته إلى القصر الفرعونى ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

ولما بلغ موسى أشده ـ كان فى الثلاثين من عمره ـ إتجهت أنظار المستضعفين من بنى إسرائيل إلى موسى ليحميهم مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام . وعاهد موسى نفسه أن يكون لهؤلاء المظلومين نصيرا.

وذات يوم دخل المدينة ـ العاصمة الفرعونية ـ فوجد رجلين يقتتلان أحدهما عبرى من مشايعته والآخر فرعونى من أصحاب القوة والسلطان فسأله الإسرائيلى أن يحول بينه وبين إعتداء الفرعونى . ووجد موسى غفلة الناس فهم وضرب الفرعونى فكانت القاضية. ثم ندم على فعلته وعدها من عمل الشيطان وأستغفر ربه مافرط منه فغفر له ربه إنه غفور رحيم.

ولما قتل موسى الفرعونى أصبح خائفا ـ من معرة مافعل ـ يتلفت ويتوقع مايكون من هذا الأمر فمر فى بعض الطرق فإذا بالإسرائيلى الذى استنصره ـ

أستغاثه ـ بالأمس على ذلك الفرعونى يقاتل آخر فاستصرخه:

ـ أنقذنى يا موسى.

فرماه موسى بالغواية والضلال:ـ ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾[1].

وإندفع موسى إلى مظاهرته والبطش بالفرعونى فاعتقد الإسرائيلى لخوره وضعفه أن موسى إنما قصد قتله فقال مسترحما:

ـ ﴿ ياموسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُون جَبَّارًا فى الأَرْضِ ومَاتُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[2].

لقد كان قوم الفرعونى فى حيرة من أمر قتيل الأمس لا يعرفون قتله فلما سمع الفرعونى هذا الإتهام الصريح لقفه من فم الإسرائيلى وإنطلق إلى قصر الوليد بن مصعب وألقاه عنده فعلم الفرعون بذلك فاشتد غضبه واشتعل حنقه وعزم على قتل موسى فلما سمع شمعان ـ مؤمن آل فرعون ـ ذلك رأى الملأ يبحثون عن موسى ليمزقوه شر ممزق . أقبل شمعان يسعى وقال لموسى:

ـ ﴿ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[3].

ونصح موسى أن يخرج من المدينة ـ منف ـ إلى حيث يشاء الله رب العالمين.

فخرج موسى من المدينة خائفا يترقب متجها إلى أن يصرف عنه كيد الظالمين فسار ثمانى ليال قاصدا بلاد مدين ـ موضع بين الحجاز والشام ـ

*** موسى يصاهر الشيخ.. ثم يعود إلى مصر:**

نزل موسى فى منزل شيخ كريم ـ يرى الحسن البصرى وأنس بن مالك أنه هو نبى الله شعيب ويرى آخرون أنه شعيب آخر وكان كبير كهنة مدين وعالمها ويسمونه يثرون أو تيزون ـ فأثار فى نفس الشيخ وبنتيه عوامل الإكبار والإعجاب لما زانه الله عز وجل من طبع كريم وخلق قويم فتحرك فى نفس صفورا إبنة يثرون حب الاستظهار بموسى وقوته والإبقاء عليه لطهارته وأمانته فقالت:

ـ ﴿ يَاأَبَتِ إِسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوى الأمين﴾[4].

---

(١) القصص : ١٨ .
(٢) القصص :١٩ .
(٣) القصص: ٢٠ .
(٤) القصص: ٦ .

وكان ماقالته صفورا ابنة الشيخ يجول بصدره فأخبر موسى برغبته فى أن يزوجه إحدى ابنتيه . . وتزوج موسى صفورا . . ثم خرج من مدين بأهله قاصدا مصر بعد أن عاش شريدا سنين بعيدا عن الأخلاء.

قال رسول الله ﷺ:

ـ **إن موسى أجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه**(رواه البزار وابن أبى حاتم عن عبد الله بن لهيعة).

فلما وفى الأجل .

قيل :ـ يارسول الله أى الأجلين؟

قال الصادق المصدوق ﷺ:ـ أوفاهما وأتمهما ـ أبرهما ـ

وكانت ليلة مظلمة باردة . . وبينما هو وامرأته وولداه يسيرون على غير هدى ـ لم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف ـ جعل موسى يشعل زناده فلم يشتعل وإشتد الظلام والبرد وبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تأجج فى جانب الطور ـ الجبل الغربى منه عن يمينه ـ فقال لأهله:

ـ ﴿ **امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا**﴾[1].

لم يراها سواه فهل كانت نور الحقيقة؟﴿**لَعَلِّى آتيكُم منْهَا بخَبَرٍ**﴾[2] فلعله يستعلم من عندها عن الطريق﴿ **أَوْجَذْوَة منَ النَّار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ [3] ﴿**فلَمَّا أَتَاهَا نُودىَ منِ شَاطىء الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَة الْمُبَارَكَة منَ الشَّجَرَة أَنْ يَامُوسى إنِّى أَنَا الله رَبُّ الْعَالَمينَ**﴾ [4]وضع موسى يديه على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفا على بصره ﴿ **إننِّى أَنَا الله لاَ إلهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقمْ الصَّلاَةَ لذكْرِى**﴾[5].

ثم سأل العلى القدير :ـ هو أعلم بما تخفى الصدور ـ

ـ ﴿ **وَمَا تلكَ بيَمينكَ يَامُوسَى**﴾[6].

---

(١) القصص: ٢٩. (٢) القصص: ٢٩. (٣) القصص: ٣٠.
(٤) القصص: ٣٠ (٥) طه: ١٤. (٦) طه: ١٧ .

أراد القادر على كل شىء الذى يقول للشىء كن فيكون أن يؤنسه. . فقال موسى:

ـ ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾(١).

فأراد موسى أن يطيل الحديث مع العزيز الحكيم فقال له:

ـ ﴿أَلْقِهَا يَامُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(٢).

فلما رآها موسى ولى هاربا منها ولم يلتفت فناداه ربه:

ـ ﴿ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾(٣).

فلما رجع أمره الله عز وجل أن يمسكها:

ـ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾(٤).

فوضع موسى يده فى كم مدرعته ثم وضع يده فى وسط فمها ـ بذنبها ـ فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين. ثم قال تعالى:

ـ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(٥).

فهاتان الآيتان هما العصا واليد ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(٦) ولما أمر الله عز وجل موسى أن يدخل يده فى جيب درعه فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف.

فعاد موسى إلى أهله ومعه نور . . وأى نور؟ لم يعد بقبس من نار، بل عاد بقبس من نور. . نور الرسالة.

موسى: .. وفرعون:

سمع موسى عليه السلام دعوة الله وتهيأ لتلبية النداء الكريم وهو وإن يكن ربط الله بالإيمان قلبه ووثق بالبراهين دعوته فأراه حجتين بهما يتقوى ويشتد

(١) طه: ١٨. (٢) طه: ١٩, ٢٠. (٣) القصص: ٣١.
(٤) طه: ٢١. (٥) النمل: ١٢. (٦) القصص: ٣٢ .

ويساجل ويعزز كلمة الله أمام فرعون وقومه .

لقد أمر الله عز وجل نبيه موسى أن يذهب إلى فرعون:

ـ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1].

لم ينس موسى أنه خرج من مصر فارا من فرعون ملك مصر وأنه هرب لما أراد قتله. ولكن عليه أن يذهب إليه يدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويأمره أن يحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسى الواحد الأحد فقال موسى:

ـ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً من لِسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي* واجْعَل لي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[2].

فاستجاب الله عز وجل لنبيه:ـ ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾[3].

وبعث الله عز وجل موسى عليه السلام إلى فرعون بتسع آيات بينات وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدق موسى فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون وهى: العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم﴿وَلَقَد آتينَا مُوسىَ تِسعَ آيَات بيِّنَات فَاسْأَل بنى إِسْرَائيل﴾[4].

يقول وهب بن منبه عن رسول الله ﷺ قال الله لموسى:

ـ انطلق برسالتى فإنك بسمعى وعينى وإن معك أيدى ونصرى وإنى قد ألبستك جنة من سلطانى لستكمل بها القوة فى أمرى فأنت جند عظيم من جندى بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وآمن مكرى وغرته الدنيا عنى حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وزعم أنه لا يعرفنى فإنى أقسم بعزتى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار فإن أمرت السماء حصبته وإن أمرت الأرض إبتلعته وإن أمرت الجبال دمرته وإن أمرت البحار أغرقته ولكن هان على وسقط من عينى ووسعه حلمي واستغنيت بما عندى وحق أنى أنا الغنى لا غنى غيرى فبلغه رسالتى وادعه

---

(1) طه: ٢٤.

(2) طه: ٢٥ ـ ٣٢.

(3) طه: ٣٦.

(4) الإسراء: ١٠١.

إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى وذكره أيامى وحذره نقمتى وبأسى وأخبره أنه لايقوم شىء لغضبى وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وأخبره أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا ـ كان فرعون يعيش فى ترف ونعيم وجاه وسلطان وعز أسطورى ـ فإن ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولايتنفس إلا بإذنى وقل له أجب ربك فإنه واسع المغفرة وقد أمهلك أربعمائة سنة فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتتمثل به وتصد عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء وينبت لك الأرض ولم تسقم ولم تهرم.

ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل ولكنه ذو أناة وحلم عظيم وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لاقبل له بها لفعلت ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ولا قليل منى تغلب الفئة الكثيرة باذنى ولاتعجبكما زينته ولا ماامتع به ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائى وقديما ماجرت عادتى فى ذلك فإنى لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعى الشفيق ابله عن مبارك العناء وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم فى دار كرامتى سالما موفوا لم تكلمه الدنيا .

واعلم أنه لايتزين لى العباد بزينة هى أبلغ فيما عندى من الزهد فى فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود أولئك أوليائى حقا فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلك قلبك ولسانك واعلم أنه من أهان لى وليا أو أخافه فقد بارز بالمحاربة وبادأنى وعرض لى نفسه ودعانى إليها وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أويفوتنى كيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة لأكل نصرتهم إلى غيرى.

واستجاب الله عز وجل لرسوله موسى فيما سأل ـ شكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فإنه كان فى لسانه عقدة من أثر لثغة الجمرة تمنعه من كثير الكلام ويسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم

عنه بكثير ممالايفصح به لسانه ـ وحل عقدة لسانه وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقى أخاه هارون فانطلقا إلى فرعون فأقاما على بابه حينالا يؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقال موسى وهارون:

ـ ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى* إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[1].

كانت آسية بنت مزاحم تحوط موسى بحنانها وكأنه ولدلها ومنذ أن قتل أحد رجال فرعون كانت حائرة قلقة.. وهاهو اليوم قد أتى إلى فرعون يدعوه إلى عبادة الله الواحد الأحد..

استشاط فرعون غضبا:

ـ ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴾[2]؟

ـ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3].

ـ ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾[4]؟

ـ ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَيَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى* الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِن نَبَاتٍ شَتَّى *كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾[5].

سمعت آسية بنت مزاحم قول موسى عليه السلام فكانت أول من آمن بدعوته التى بعثه الله عز وجل بها ولكنها كانت خائفة على موسى عليه السلام من عيون فرعون وبطش الطاغية.

*** معجزات موسى عليه السلام:**

كان موسى عليه السلام قوى الظهر مسدد الخطا يستمد العون والتوفيق من الله العلى الكبير وكان السحر قد ذاع فى بنى مصر أمره واشتهر شأنه فظهر الساحر الذى يخلب الألباب ويسترق الفؤاد ويلعب بالعقول لعب الريح بالعود فقد برعوا فى هذا الفن وأتقنوه فلم يبارهم سابق ولم يبلغ شأوهم لاحق.

---

(١) طه: ٤٧، ٤٨ . (٢) طه: ٤٩ . (٣) طه: آية ٥٠ .

(٤) طه: ٥١ . (٥) طه: ٥٢ ـ ٥٤ .

جلس فرعون على كرسيه الذهبى وأشار بصولجانه نحو موسى وهارون عليهما السلام وتساءل:

ـ فما تريدان؟

قالا: ـ ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[1].

فنظر فرعون نحو موسى عليه السلام بعين الازدراء والتنقص وقال:

ـ ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾[2]؟

أما أنت الذى ربناه فى منزلنا؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر؟

ثم أردف فرعون متسائلا:

ـ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[3]؟

ألم تقتل الرجل القبطى وفررت منا وجحدت نعمتنا؟ ـ أى بنعمتى التى كانت عليك من التربية والإحسان إليك فى أنى إلـهك فأنت من الكافرين بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه ـ فقال موسى عليه السلام لينفى عن نفسه الكفر:

ـ ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

لقد قتل موسى القبطى وهو من الجاهلين ـ من جهل شيئا ضل عنه ـ ثم خرج من مصر إلى مدين فوهب الله عز وجل لموسى عليه السلام تعليم التوراة التى فيها حكم الله ـ علما وفهما ـ وجعله من المرسلين.

لما غلب موسى عليه السلام فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى عليه السلام فتساءل تساؤلا عن مجهول من الأشياء:

ـ ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[5] ؟ـ ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ـ؟

قال موسى عليه السلام:

ـ ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾[6].

---

(١) الشعراء: ١٦، ١٧. (٢) الشعراء: ١٨. (٣) الشعراء: ١٩.

(٤) الشعراء: ٢٠، ٢١ (٥) الشعراء: ٢٣. (٦) الشعراء: ٢٤.

أي خالق الأشياء كلها العالم العلوى ومافيه من الكواكب والعالم السفلى ومافيه من بحار وقفار وأشجار ونبات وحيوانات وهواء وطير ﴿إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ﴾ إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة.

عند ذلك التفت فرعون اللعين إلى من حوله من سادات قومه ورؤساء دولته فقال متهكما مستهزئا مكذبا موسى عليه السلام:

ـ ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1].

أى ليس له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى .

فقال موسي عليه السلام:

ـ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَابَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]

أي أن الله عز وجل ليس ملكه كملكك لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يجوز أمرك في غيره ويموت من لا تحب أن يموت والذى أرسلنى يملك المشرق والمغرب فهو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها.

فلما قامت الحجة على الطاغية بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى عليه السلام بيده، وسلطانه فقال:

ـ ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾[3].

لقد رأى فرعون أن سجن موسى عليه السلام أشد من القتل فكان إذا سجن أحدا لم يخرجه من السجن حتى يموت فكان مخوفا. . ولكن موسى عليه السلام لم يلقِ لتوعد فرعون التفاتا ولم يروعه تهديده فقال له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه:

ـ ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾[4].

فيتضح لك به صدقى؟؟.

فلما سمع فرعون ذلك طمع فى أن يجد موضع معارضة فقال:

---

(١) الشعراء: ٢٧. (٢)الشعراء: ٢٨ .

(٣) الشعراء: ٢٩ . (٤) الشعراء: ٣٠

ـ ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

فألقى موسى عصاه فإذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فلما رآها قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى عليه السلام:

ـ كفها عنى.

ففعل موسى عليه السلام

ثم أخرج موسى عليه السلام يده من جيبه فرآها فرعون بيضاء من غير سوء ـ من غير برص ـ تتلألأ كقطعة من القمر. ثم ردها إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول. فبادر فرعون اللعين بشقاوته إلى التكذيب والعناد فقال للملأ حوله:

ـ ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

أى فاضل بارع فى السحر.

كذب فرعون بآيات الله فروج على موسى وهارون عليهما السلام أن هذين من قبل السحر لا من قبل المعجزة ثم هيج الحاضرين وحرضهم على مخالفة موسى وهارون عليهما السلام والكفر بهما فقال:

ـ ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[3].

إنه أراد أن يذهب بقلوبكم ويكثر أعوانه وأنصاره ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم فأشيروا على.

فقالوا:

ـ ﴿ أَرْجِهِ وَأَخَاهَ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾[4].

أخره وأخاه حتى نجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ويأتون بنظير ماجاء به فتغلبه وتكون لك النصرة والتأييد.

فقال فرعون لموسى عليه السلام:

ـ إن هذا الذى جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله.

ثم طلب من موسى عليه السلام أن يواعداه إلى وقت معلوم ومكان . . وكان

---

(١) الشعراء: ٣١.
(٢) الشعراء: ٣٤.
(٣) الشعراء: ٣٥.
(٤) الشعراء: ٣٦.

هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس. . فقال:

ـ ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[1]

أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا فى ظلام كيما يروج على الناس محالا وباطلا بل طلب موسى عليه السلام أن يكون الموعد نهارا جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن العزيز القدير سيظهر كلمته ودينه.

قال الملأ لفرعون:

ـ اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحر موسى وهارون.

فأرسل فرعون إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم وكل سحار عليم. . فلما أتوا فرعون قالوا:

ـ بما يعمل هذا الساحر ـ يعنون موسى عليه السلام ـ؟

قال فرعون: ـ يعمل بالحيات والثعابين.

قال السحرة: ـ مولانا الآله المعبود ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والثعابين والحبال والعصى الذى نعمل فما أجرنا إن نحن غلبنا؟

كانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء فى فنهم ـ جمع لفرعون نحو ثمانين ألف وقيل كانوا سبعين رجلا ـ

فقال فرعون: ـ أنتم أقاربى وخاصتى وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم.

ونادى فرعون فحضر أمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم وقد خرجوا وهم يقولون:

ـ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَة إن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[2].

لماذا لم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى عليه السلام؟ لأن الرعية على دين ملكهم؟.

---

(١) طه: ٥٩ .   (٢) الشعراء: ٤٠ .

واجتمع الناس فى صعيد واحد وجلس فرعون فى هذا الموقف العظيم.

وتقدم السحرة وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم هم رؤساؤهم: سابور وعاذور وحطحط ومصفى فلقيهم موسى عليه السلام ووعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه.. وقال:

- ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى الله كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾(١).

لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله فيهلكم بعقوبة هلاكا لا بقية له.

فتشاجروا فيما بينهم واختلفوا فقال سابور ومصفى.

- ليس هذا بكلام ساحر وإنما هذا كلام نبى.

وقال عاذور وحطحط:

- بل هو ساحر.. إن هذان لساحران عالمان خبيران بصناعة السحر يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس وتتبعهما العامة ويقاتلا الآله فرعون وجنوده فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم بسحرهما.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ (٢).

ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ماعندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان.. ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُم ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾(٣).

وحض بعضهم بعضا على التقدم فى هذا الموقف العظيم بعد أن مناهم فرعون ووعدهم .. وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وجاءت آسية بنت مزاحم لتشاهد هذا المقام وهى تدعو الله أن ينصر نبيه موسى عليه السلام..

قال السحرة:- ﴿يامُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِي وإِمَّا أَنْ نكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾(٤)؟

---

(١) طه : ٦١ : ومابعدها.
(٢) طه: ٦٢ .
(٣) طه ٦٤.
(٤) طه: ٦٥ .

قال موسى عليه السلام :ـ ﴿ بَلْ أَلْقُوا﴾[1] أنتم .

وعمد السحرة إلي حبال وعصى ـ كانوا قد أودعوها الزئبق وغيره من الالآت التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها وإنما تتحرك بسبب ذلك ـ فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم .

لقد اختطفوا بسحرهم بصر موسى عليه السلام وبصر فرعون ثم أبصار الناس . . ثم ألقي كل رجل منهم مافى يده من الحبال والعصى فإذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا . .

﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2] .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾[3] .

لقد خاف نبي الله موسى عليه السلام على الناس أن يفتنوا بسحرهم وخديعتهم قبل أن يلقى مافى يده فإنه كان لايفعل شيئا قبل أن يؤمر . . فأوحى الله عز وجل إليه في هذه الساعة الراهنة :

ـ ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَافِي يَمِينِكَ تلقف مَاصَنَعُوا إنما صنعوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[4] .

فألقى موسى عليه السلام عصاه فصارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم وشكل هائل مزعج فإنحاز الناس منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها . . فأقبلت هى على ماألقى السحرة من حبال وعصى فجعلت تلقفه وتبتلعه واحدا واحدا في لمح البصر والناس ينظرون ويتعجبون منها .

أما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم ورأوا أمرا لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يخضع ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم . . فعند ذلك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا محال ولاخيال ولا زورولا بهتان ولا ضلال . . بل حق لا يقدر عليه إلا الحق فقال سابور ومصفى :

ـ ألم نقل لكم إنه نبى؟

وكشف الله عز وجل عن قلوب السحرة غشاوة الغفلة وأنارها . . فخر

---

(١) طه : ٦٥ .
(٢) الأعراف : ١١٦ .
(٣) طه : ٦٧ .
(٤) طه آية : ٦٨ ، ٦٩ .

السحرة ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين .

ـ ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[1] .

وتهلل وجه آسية بنت مزاحم وحزيقيل ـ زوج ماشطه بناتها وكان مؤمنا مثلها ـ وأربد وجه فرعون لقد جاء بالسحرة أمام الناس ليغلبوا موسى وهارون. . فيعلنان أمام الحاضرين إيمانهم بهما؟ لقد هزموا شر هزيمة. . بل هو الذى هزم بعد أن استنصر بهم فآمنوا بحضرة الناس وغلب كل الغلب. . هل يستسلم للهزيمة؟ لا سيظل على عناده وبغيه ومكابرته عن الحق بالباطل.

هدد فرعون السحرة وتوعدهم وقال:

ـ آمنتم له ـ صدقتموه ـ قبل أن آذن لكم ـ وما أمرتكم بذلك ـ؟ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف .

*** الفرار من مصر:**

ولما عجز فرعون عن مجاهده كليم الله عليه السلام خلص إلى الملأ من قومه وائتمروا ليقتلوا موسى عليه السلام والتمس كليم الله عليه السلام وبنو إسرائيل الفرار من مصر وكان الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب عليهما السلام قد أوصى إذا خرج بنو إسرائيل من مصر أن يحملوا تابوته إلى الأرض المقدسة .

وخرج كليم الله وخرج معه ستمائة ألف وعشرين ألفا من بنى إسرائيل وكان على ساقة بنى إسرائيل أما أخوه هارون عليه السلام ويوشع بن نون فكانا على مقدمتهم .

وسار كليم الله عليه السلام أول الليل إلى الأرض المقدسة . .

ولما علم الوليد بن مصعب فرعون مصر بخروج بنى إسرائيل اشتد غضبه وهاج وماج وأرسل سريعا فى بلاده لتلحقه الجند والعساكر. . ودعا فرعون بشاة فذبحت ثم قال:

ـ لا أفرغ من كبد الشاة حتى يتبع إلى ستمائة ألف من القبط.

وأقبل الناس كالجراد المنتشر . . ولم يفرغ الوليد بن مصعب من كبد الشاة حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط فقال:

---

(١) طه: ٧٠.

ـ لاتتبعوهم حتى تصيح الديكة ـ قبيل الفجر ـ

وكانت إرادة العلى القدير . .فما صاح ديك فى تلك الليلة حتى أصبحوا . . .

وخرج فرعون في محفل عظيم وجمع كبير من أولى الحل والعقد وخلفاء الأمراء والرؤساء والجند وجعل وزيره هامان على مقدمتهم .

وضل كليم الله عليه السلام الطريق إلى الأرض المقدسة فقال:

ـ ماهذا؟

قال علماء بنى إسرائيل:

ـ إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى تنقل عظامه معنا.

فقال لهم موسى عليه السلام:ـ أيكم يدرى أين قبر يوسف؟

فقال له علماء بنى إسرائيل:

ـ مايدرى أين قبر يوسف إلا عجوز من بنى إسرائيل.

فأرسل إليها موسى عليه السلام فقال:ـ دلينى على قبر يوسف

فقالت: لا والله حتى تعطينى حكمى.

قال موسى: وماحكمك؟

قالت: حكمي أن أكون معك فى الجنة.

فكأنما ثقل ذلك عليه . . فقيل له:

ـ أعطها

فأعطاها حكمها فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقع ماء فقالت:

ـ انضبوا هذا الماء.

فلما نضبوا قالت:ـ احفروا فى هذا المكان.

فلما احتفروا أخرجوا عظام يوسف . . فلما استنقلوها من الأرض إذا الطريق مثل النهار (أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى موسى والطبرانى فى الكبير).

ولاح الطريق لنبي الله موسى عليه السلام فسار هو ومن معه حتى وقف أمام

البحر . . ولحق بهم فرعون وجنوده فأوحى العليم الخبير لكليمه عليه السلام ﴿ **أن اضرب بعصاك البحر**﴾[1] .

وكان العزيز الحكيم قد أوحى تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع إليه وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولايدرى من أى جانب يضربه كليم الله عليه السلام؟

وضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه فانفلق بإذن الله﴿**فكان كل فرق كالطود العظيم**﴾ [2] أى كالجبل العظيم ـ الفج بين الجبلين ـ فقام الماء على حيله كالحيطان وذهبت الظلمات وإذا اثنتا عشر طريقا لاثنى عشر سبطا ـ السبط : الفريق من اليهود ـ لكل سبط طريق وإذا الشمس والريح يهيئهما القادر الذى يقول للشىء كن فيكون فتجف قاع البحر وتمهد السبل فتصير يبسا . . فانساب موسى عليه السلام وبنو إسرائيل إلى بر الأمان والسلام .

واندفع فرعون وجنوده إلى مسالك البحر يحثون خيلهم فى طلب بنى إسرائيل . .ولكن لم يكادوا يصلون إلى وسط البحر حتى انطبق عليهم . . فكانوا من المغرقين . .

*** كيف عرف بنو إسرائيل أن فرعون قد غرق؟؟**

سمع صوت انطباق البحر شديدا كالرعد فتساءل بنو إسرائيل :

ـ ياكليم الله ماهذه الضوضاء؟

قال موسى عليه السلام :ـ إن الله قد أهلك فرعون ومن معه .

فقال بنو إسرائيل غير مصدقين :

ـ يانبى الله إن فرعون لا يموت ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور؟ ولا يحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه بنو البشر؟

فنظر موسى عليه السلام إليهم فى عجب . . هل عاودتهم غريزة رسخت فى نفوسهم وباطل تمكن من قلوبهم وهم تأصل فى عقولهم؟

ثم عاد بنو إسرائيل يقولون :

ـ ياكليم الله إن فرعون أعظم شأن من ذلك . . نسأل الله أن يرينا إياه غريقا .

---

(١) الشعراء : آية ٦٣ .   (٢) الشعراء : آية ٦٣ .

فأمر العلى القدير البحر فلفظ جثة فرعون على ساحله **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾**(١).

رمى البحر بفرعون على ساحله حتى رآه بنو إسرائيل وكان قصيرا أحمر كأنه ثور لقد رآه بنو إسرائيل على نجوة ـ ناحية من البحر ـ من الأرض ببدنه وهو فى درعه التى يلبسها فى الحروب.

يقول عبد الله بن عباس :ـ كانت درعه من لؤلؤ منظوم.

وقيل كانت درعه من الذهب وكان يعرف بها.

فأبرزه العزيز الحكيم لهم فرأوه جسدا لا روح فيه فقالوا:

ـ نعم ياموسى هذا فرعون وقد غرق.

هل خرج الشك من قلوبهم؟ أدركوا أن فرعون لا يعيش فى عالم آخر؟

*** يوشع بن نون:**

خرج كليم الله عليه السلام إلى الشام وكان له بها حروب من سرايا كانوا يسرونها من البر إلى العماليق والقربانيين والمدنيين وغيرهم ممن كانوا بالشام وغيرهم من الطوائف وأنزل الله عز وجل على موسى عليه السلام عشر صحف فاستتم مائة صحيفة ثم أنزل الله تبارك وتعالى على كليمه التوراة بالعبرانية وفيها الأمر والنهى والتحريم والتحليل والسنن والأحكام وذلك فى خمسة أسفارـ السفر يريدون به الصحيفة ـ وكان موسى عليه السلام قد ضرب التابوت الذى فيه السكينة من الذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمائة وخمسين مثقالا فصار الكافل بعد هارون يوشع بن نون من سبط يوسف ـ هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ وبعثه الله عز وجل نبيا إلى بنى إسرائيل ـ كان يوشع بن نون وهارون على مقدمة بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر فرارا من بطش فرعون ـ وأمر العلى القدير نبيه يوشع بن نون بالمسير إلى الشام وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام فأسرى يوشع بن نون عليه السلام إلى أريحا مدينة الجبارين سرايا وكانت له معهم وقائع فافتتح بلاد أريحا وزغر من أرض الغور ولما ظفر يوشع بن نون عليه السلام

---

(١) يونس آية : ٩٢.

بالجبارين أدركه المساء ليلة السبت فدعا الله فرد الشمس عليه وزاد النهار ساعة فهزم الجبارين ودخل مدينتهم وجمع الغنائم ليأخذها القربان فلم تأت النار فقال يوشع بن نون:

ـ فيكم غلول فبايعونى.

فبايعوه..

فلصقت يده في يد من غل فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت فجعله يوشع بن نون عليه السلام فى القربان وجعل الرجل الذى غل ـ سرق ـ معه فجاءت النار فأكلتهما .

وكانت مدة يوشع بن نون فى بنى إسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران عليه السلام تسعا وعشرين سنة.

قال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ إن يوشع بن نون دعا ربه: اللهم إنى أسألك باسمك الزكى الطهر الطاهر المطهر المقدس المبارك المخزون المكنون المكتوب على سرادق المجد وسرادق الحمد وسرادق القدرة وسرادق السلطان وسرادق السر إني أدعوك بأن لك الحمد لا إآلـه إلا أنت النور البار الرحمن الرحيم الصادق عالم الغيب والشهادة بديع السموات والأرض ونورهن وقيمهن ذو الجلال والإكرام حنان منان جبار نور دائم قدوس حى لا يموت هذا مادعا به فحبست الشمس بإذن الله. (رواه أبو الشيخ فى الثواب وابن عساكر والرافعى عن أنس).

وقال الذى لا ينطلق عن الهوى ﷺ:

ـ ما حبست الشمس على بشر قط إلا على يوشع بن نون ليالى سار إلى بيت المقدس ـ حينما سار لمحاربة الجبابرين ـ (رواه الخطيب عن أبى هريرة وأورده الحافظ المجلونى فى كشف الخلفاء).

*** كالب بن يوقنا:**

ولما مات يوشع بن نون أستخلف على بنى إسرائيل كالب بن يوقنا وكالب ويوشع الرجلان اللذان أنعم الله عليهما وكان كالب صهر موسى عليه السلام على أخته مريم بنت عمران .

* دلوكة تحكم مصر.

لما غرق فرعون ومن كان معه خشى من بقى بأرض مصر من الذرارى والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب فملكوا عليهم امرأة ذات رأى وحزم يقال لها دلوكة فبنت على بلاد مصر حائطا يحيط بجميع البلاد وجعلت عليه المحارس والأجراس والرجال متصلة أصواتهم يقرب بعضهم من بعض ويعرف هذا الحائط بحائط العجوز وآثاره باقية حتى الآن.

وظلت دلوكة تحكم مصر نحو ثلاثين سنة.

* عيسى بن مريم عليه السلام فى مصر.

كان هيرودس حفيد خادم فى هيكل اشلقون اغتصب الملك بمعاونة الرومان فجاءه رجال من بنى إسرائيل وأخبروه أنهم لا يقبلون ملكا عليهم إلا رجلا منهم ففعل هيرودس ببنى إسرائيل كما فعل فرعون أيام موسى عليه السلام وأزهق أرواح اليهود حتى لا ترتفع أصواتهم أو اعتراضاتهم الوقحة.

وكان الخوف من يهودى على عرش هيرودس يقلقه فقد أخبره العرافون والمنجمون أن مولودا من بنى إسرائيل ولد وسوف يرتفع شأنه وسيذهب بملكه فثارت ضرارة هيرودس واضطرمت نيران خوفه فكيف يسمح بزوال ملكه وسلطانه؟ وأمر بقتل أولاد اليهود.

وولد المسيح عيسى بن مريم بعد مضى اثنتين وأربعين سنة من ملك أغسطس قيصر واحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين التابعين لقيصر.

وكان يوسف النجار يكفل مريم وابنها.

وذات ليلة رأى يوسف النجار بن يعقوب فى نومه أن هاتفا يقول له:

- يايوسف قم واحمل الطفل - عيسى - وأمه فأخرج إلى مصر فإن هيرودس يبحث عنه ليقتله.

فهب يوسف النجار من نومه وقلبه يدق فى عنف فأخذ سراجا خافتا ومشى إلى العذراء البتول التى كانت تضم إلى صدرها ابنها فى حنان وكأنها تستشعر الخطر الداهم المحدق به فقال يوسف النجار:

- مريم . . مريم.

ففتحت عينيها وتساءلت:ـ ماذا حدث؟

فقال يوسف النجار:ـ انهضى إن الله يأمرنا أن نخرج إلى مصر.

فلم تناقشه . . وقامت فى جوف الليل لتعد العدة للسفر إلى مصر.

وقيل : لما ولد عيسى خرت الأصنام يومئذ فى مشارق الأرض ومغاربها وأن الشياطين حارت فى سبب ذلك وأنه ظهر نجم عظيم فى السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا:

ـ هذا لمولد عظيم فى الأرض.

فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى ـ ورد ذلك فى انجيل متى الإصحاح الثانى ـ فلما قدموا الشام سألهم ملكها:

ـ عما أقدمكم؟

فقالوا:ـ ولد عظيم فى الأرض خرت له الأصنام فى مشارق الأرض ومغاربها وظهر لمولده نجم عظيم فى السماء.

فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد. . فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه . فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا سألتهم:

ـ من أين علمتم بموضعه ـ عيسى ـ؟

قالوا:ـ من النجوم

وكان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى عليه السلام فلما رجعوا قيل لهم:

ـ إن رسول ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك.

فدعى عيسى عليه السلام ربه عند ذلك فقال:

ـ اللهم لاتفههم فى علمها ـ علم النجوم ـ فلا يعلم علم النجوم أحد.

فصار حكمها فى الشرع محظورا وعلمها فى الناس مجهولا.

وحملت مريم بنت عمران إبنها وذهبت إلى مصر ومعهما يوسف بن يعقوب النجار. .

وفى هذا الوقت خرج جنود هيرودس إلى بيت لحم وانقضوا على الأطفال

الرضع انقضاض الوحوش الكواسر . . وأشرقت شمس ذلك اليوم وبيت لحم غارقة في الدماء. . ولكن ركب يوسف النجارومريم وعيسى الهارب من الطغيان كان ينطلق في جوف الصحراء شطر مصر.

قال عبد الله بن عباس:

ـ وكان عيسى يرى العجائب في صباه الهاما من الله ففشا ـ انتشر ـ ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه فأوحى الله إلى أمه ـ ألهمها ـ أن تنطلق إلى أرض مصر فذلك قوله تعالى﴿**وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾[1].

ونزل يوسف النجار ومريم بنت عمران وعيسى عند دهقان في بيت لا يسكنه إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج ووجد يوسف بن يعقوب النجار عملا يقتات منه فقد كان يعمل نجارا ووجدت مريم عملا في حقل من الحقول.

وظهرت معجزات المسيح وكراماته في حال صغره. . فذات يوم افتقد الدهقان الذي نزلوا عنده ـ في عين شمس ـ مالا من داره فعز ذلك على مريم وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها فلما رأى عيسى أمه واجمة عرف في وجهها الحزن فسألها:

ـ مابك يا أماه؟

قالت مريم بنت عمران:ـ سرقت خزانة الدهقان.

فقال عيسى بن مريم:ـ يا أم أتحبين أن أدله على ماله؟

فقالت مريم في لهفة:ـ نعم يابنى

قال عيسى بن مريم:ـ قولى له يجمع لى من في الدار.

فذهبت مريم إلى الدهقان وطلبت منه أن يجمع النازلين بداره. . فلما إجتمعوا عمد عيسى بن مريم إلى رجل أعمى وآخر مقعد فقال للأعمى:

ـ احمل هذا المقعد وانهض به .

فقال الأعمى:ـ أنا أضعف من ذلك

---

(١) سورة المؤمنون آية : ٥٠ .

فقال عيسى بن مريم:ـ فكيف قويت على ذلك البارحة؟

فلما سمح النازلون بالدار قول المسيح بعثوا الأعمى حتى قام بالرجل المقعد. . فلما استقل قائما بلغ المقعد كوة الخزانة فقال عيسى بن مريم للدهقان:

ـ هكذا أحتالا لمالك البارحة فقد استعان الأعمى بقوته والمقعد بعينيه.

فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى فى أعين الناس وهو صغير جدا.

وعرض الدهقان على مريم بنت عمران نصف المال فقالت وهى ترده:

ـ إنى لم أخلق لذلك.

فقال الدهقان:ـ فأعطيه ابنك.

فقالت العذراء البتول:ـ هو أعظم منى شأنا.

ولما بلغ عيسى بن مريم سبع سنين أسلمته أمه فى الكتاب فجعل لايعلمه المعلم شيئا إلا يذره إليه.

فعلمه أبجد فقال عيسى:ـ ما أبوجد؟

فقال المعلم:ـ لا أدرى.

فقال عيسى:ـ كيف تعلمنى مالا تدرى؟

فقال المعلم:ـ إذا فعلمنى.

فقال عيسى بن مريم:ـ فقم من مجلسك.

فقام فجلس عيسى فى مجلسه وقال:ـ سلنى

فقال المعلم:فما أبوجد؟

فقال عيسى بن مريم :ـ الألف آلاء الله والباء بهاء الله والجيم بهجة الله وجماله.

فعجب المعلم من ذلك. . فكان أول من فسر أبجد.

وعمل ابن الدهقان ضيافة للناس بسبب طهور أولاده فلما إجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابا ـ خمرا ـ كما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان. .

لم يجد فى جراره شيئا فشق عليه ذلك فلما رأى عيسى بن مريم سحب الحزن تكسو وجهه . . قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرابا من خيار الشراب. . فتعجب الناس من ذلك جدا وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلا فلم يقبلانه.

وطار إلى مصر خبر مرض هيردوس الكبير ففرح يوسف النجار لما سمع هذا النبأ فقد ظل فى مصر إثنتى عشرة سنة وقد أضناه الشوق والحنين إلى العودة إلى الناصرة.

وهلك هيرودس . . وقام يوسف النجار من نومه على هاتف يقول:

ـ خذ الصبى وأمه وإذهب إلى أرض فلسطين لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى .

***العودة إلى فلسطين :**

فعاد إلى فلسطين وكان عمره ثلاث عشرة سنة.

*** سبب تسمية مصر بمصر**

كان اسمها فى الدهر الأول زجلة من المزاجلة

وقال المقريزى : كان أسمها جزلة . .

وقيل: سميت بمصريم بن مركائيل بن دوابيل بن غرباب بن آدم، وهذا هو مصر الأول.

وقال المقريزى: مصر بن مركابيل.

وفى صبح الأعشى: مصريم بن براجيل بن رزائيل.

وقيل: بل سميت بمصر الثانى وهو مصرام بن نثراوش الجبار بن مصريم الأول.

وقيل: بل سميت بعد الطوفان بمصر الثالث وهو مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهو اسم أعجمى لا ينصرف .

وقيل: هو اسم عربى مشتق ـ إذالمصر فى لغة العرب اسم للحدين الأرضين، فقول أهل هجر: اشتريت الدار بمصورها أى بحدودها ـ

ويقول المسعودى فى مروج الذهب: وهى مصر واسمها كمعناها وعلى إسمها سميت الأمصار ومنه أشتق هذا الإسم عند علماء البصريين - المصريين -

* وصف مصر.

وصف بعض الحكماء مصر فقال:

ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء.

وثلاثة أشهر مسكة سوداء.

وثلاثة أشهر زمردة خضراء.

وثلاثة أشهر سبيكة - ذهب - حمراء.

فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى شهر أبيب - تموز أى شهر يوليو - ومسرى - آب وهو شهر أغسطس - وتوت - أيلول وهو شهر سبتمبر - يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، وضياعها - جمع ضيعة وهى النخل والكرم والأرض - على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا الزوارق.

وأما المسكة السوداء فإن فى شهر بابه - تشرين الأول - وهاتور - تشرين الثانى وكيهك - كانون الأول - ينكشف الماء عنها وينضب - غار فى الأرض فالنضوب: البعد - عن أرضها فتصير أرضا سوداء وفيها تقع الزراعات وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك.

وأما الزمردة الخضراء فإن فى شهر طوبة - كانون الثانى - وأمشير - شباط - وبرمهات - آذار - تلمع يكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء.

وأما السبيكة الحمراء فإن فى شهر برمودة - نيسان - وبشنس - أيار - وبؤونة - حزيران - يبيض الزرع ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة.

ووصف آخر مصر فقال:

نيلها عجب. وأرضها ذهب. وخيرها جلب.

وملكها لمن سلب. وفى أهلها صخب. وطاعتهم رهب. وسلامهم شغب. وحروبهم حرب. وهى لمن غلب.

ووصف بعض الشعراء مصر ونيلها فقال:

مصر ومصر شأنها عجيب ونيلها تجرى به الجنوب

ولما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أن صف لى مصر .

فكتب يقول:

أما بعد ياعمرو وإذا أتاك كتابى فابعث إلى جوابه تصف لى مصر ونيلها وأوضاعها وماهى عليه حتى كأننى حاضرها.

فكتب عمرو بن العاص إليه:

ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألنى عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر ـ عشرة أيام ـ يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، ويخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر، له أوان يدر جلابه، ويكثر فيه دبّابُه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما أصلخم ـ إشتد ـ عجاجه ـ نهر عنجاج : كثير الماء تسمع لمائه المتدفق عجيجا أى صوتا ـ وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن فى المخايل ـ جمع مخيلة: ظنه ـ ورق الأصائل ـ جمع أصيل، الورق: جمع ورقاء وهى الحمامة ـ فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول مابدأ فى جريته، وطما فى درته ـ الدرة: اسم من الدر بالفتح وهو اللبن والمعنى: فى زيادته وفيضه ـ فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة ـ كان الروم يحقرونهم ويمهنونهم ولا يرعون لهم عهداً ولا ذمة ـ ، يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ماسعوا من كدهم ـ كان أهل مصر يكدون فى حرث الأرض وزرعها ثم يستحوز الروم على محصولها فقد كان أهل مصر فى آخر حكم الرومان بمثابة آلات لانبات القمح وكانت مصر مزرعة تصدره إلى روما ـ فناله منهم بغير جدهم، فإذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، فإذا هى زمردة خضراء، فإذا هى دبيجة ـ نخد رقشاء ـ الرقشاء: المنقطة بسواد وبياض ـ فتبارك الله الخالق لما شاء، والذى يصلح

هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها، فى عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال، تضاعف إرتفاع المال.

والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل.

فلما ورد الكتاب على الفاروق قال:

ـ لله درك يا ابن العاص وصفت لى خبرا كأنى أشاهده .

*** أشعار فى وصف مصر**

ورد من الأشعار فى وصف مصر الكثير منها ماقاله الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى:

لم لا أهيم بمصر	وأرتضيها وأعشق
وماترى العين أحلى	من مائها إن تملق

وقال الشيخ زين الدين عمر بن الوردى:

ديار مصر هى الدنيا ومساكنها	هم الأنام فقابلها بتقبيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها	مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال ابن سلار:

لعمرك مامصر بمصر وإنما	هى الجنة العليا لمن يتذكر
وأولادها الولدان من نسل آدم	وروضتها الفردوس والنسل كوثر

وقال القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى:

مامثل مصر فى زمان ربيعها	لصفاء ماء واعتدال نسيم
أقسمت ماتحوى البلاد نظيرها	لما نظرت إلى جمال وسيم

وقال أيضا:

لمصر فضل باهر	لعيشها الرغد النضر
فى كل سفح يلتقى	ماء الحياة والخضر

وقال صفى الدين الحلى:

لله قاهرة المعز فإنها ... بلد تخصص بالمسرة والهنا

أو ماترى فى كل قطر منية ... من جانبيها فهى مجتمع المنى

وقال أبو الحسن على بهاء الدين الموصلى الحنبلى:

بها ماتلذ العين من حسن منظر ... وماترتضيه النفس من شهواتها

وتربتها تبر يلوح وعنبر ... يفوح وتلقى بَعْد بُعْد حياتها

زمردة خضراء قد زين قرطها ... بلؤلؤة بيضاء من زهراتها

وقال ابن الصائغ الحنفى:

أرض بمصر فتلك أرض ... من كل فن بها فنون

ونيلها العذب ذاك بحر ... مانظرت مثله العيون

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

روت لنا مصر من فواكهها ... أخبار صدق صحيحة الخبر

وكل ماصح من محاسنها ... أرويه من خوخها عن الزهرى

وقال أيضا:

حلا نيل مصر وهو شهد ومن يذق ... حلاوته يوما من الناس يشهد

أيا بردى بالشام إن ذبت حسرة ... وغيظا فلا تهلك أسى وتجلد

وقال الشريف العقيلى:

أحسن إلى الفسطاط شوقا واننى ... لأدعو لها ألا يحل بها القطر

وهل فى الحيا من حاجة لجنابها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروسا والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما أنتظم الدر

* محاسن مصر:

أما محاسن مصر فكثير منها:

يقول الشيخ الإمام الفقيه أبو محمد الحسن بن زولاق: إن من محاسن مصر إعتدال هوائها فى حرها وبردها، وأن مزاج هوائها لا يقطع أحدا عن التصرف كما يقطع حر بغداد أهلها عن التصرف فى معايشهم، ويخلو أكثر الطرقات بها نهارا، وكذلك بردها، وإن برد مصر ربيع وحرها قيظ،

وقدم رجل من بغداد إلى مصر فقيل له:ـ ما أقدمك ؟

قال: فررت من كثرة الصياح فى كل ليلة: ياغافلين الصلاة لاختفائهم من الحر والبرد فإن حر بغداد وبردها يقطعان أهلها عن التصرف حتى أنهم يكمنون فى بطن الأرض ـ مازالت طريقة بناء السراديب فى بغداد متبعة حتى اليوم وهى طريقة مناسبة لاتقاء الحر ـ من شدة الحر فى الصيف. مصر تمير أهلها والساكنين بها وبأعمالها، وتمير الحرمين الشريفين والوافدين إليها من الأقطار، وما نجد بلدا إلا وتصل إليها ميرة مصر، وبغداد لاتمير أهلها فضلا عن غيرهم لأن طعامها وأقوات ساكنيها من الموصل، فبغداد تمير نفسها أربعة أشهر وتميرها الموصل أربعة أشهر، وتميرها واسط أربعة أشهر.

ولم يقع بمصر غلاء إلا أيام المستنصر بالديار المصرية سنة ست وخمسين إلى سنة خمس وستين وخمسمائة التى شبهت بأيام يوسف عليه السلام ولم يقع بمصر غلاء مثله قبله ولابعده.

وأما خراج مصر فقيل إن كيقاوس ـ قال المقريزى : منقاوس ـ أحد ملوك القبط الأول جبى خراجها فجاء مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار. وجباه عمرو بن العاص فى الإسلام اثنى عشر ألف ألف دينار.

الاسكندرية

لما استقام ملك الإسكندر الأكبر فى بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية فأصاب فى موضعها آثاربنيان عظيم وعمدا كثيرة الرخام، وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند ـ وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد ـ:

أنا شداد بن عاد، شددت بساعدى البلاد، وقطعت عظيم العماد، من الجبال والأطواد ـ جمع طود وهو الجبل العظيم ـ وأنا بنيت ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وأردت أن ابنى ههنا كارم، وأنقل إليها كل ذى اقدام وكرم ـ قدام وكرم ـ قدم وكرم ـ من جميع العشائر والأمم، وذلك إذ لاخوف ولاهرم، ولا إهتمام ولاسقم ، فأصابنى ما أعجلنى ـ من أعجلنى ـ وعما أردت قطعنى مع وقوع ماأطال عمى ـ ومع وقوعه طال همى ـ وشجنى، وقل نومى وسكنى، فأرتحلت بالأمس ـ بالأمن ـ عن دارى لالقهر ملك جبار، ولا لخوف جيش جرار، ولاعن رهبة ولا عن صغار، ولكن لتمام المقدار، وإنقطاع الآثار، وسلطان العزيز الجبار، فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى فلا يغتر بالدنيا بعد فإنها غرارة تأخذ منك ماتعطى وتسترجع ماتولى.

ونزل الإسكندر المقدونى متفكرا يتدبر هذا الكلام الذى يرى فناء الدنيا ويمنع الاغترار بها والسكون إليها فهل تدبره واعتبره؟

بعث الإسكندر الأكبر فحشر الصناع من البلاد وخط الأساس وجعل طول الإسكندرية وعرضها أميالا وحشد إليها العمد والرخام وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والأحجار من جزيرة صقلية وبلاد افريقية واقريطش وأقاصى بحر الروم مما يلى مصبه من بحر أوقيانوس وحمل إليه أيضا من جزيرة رودس ـ جزيرة مقابلة للإسكندرية على ليلة منها فى البحر وهى أول بلاد الأفرنجة ـ وأمر الإسكندر المقدونى الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة وجعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة وجعل من الخشبة إلى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض، وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام وكان أمام مضربه، وعلق على العمود جرسا عظيما وأمر الناس والقواد على البنائين والفعلة والصناع أنهم إذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال ـ علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا ـ حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها وأراد الإسكندر الأكبر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره ذى طالع سعيد ـ وطالع سعد يأخذه ـ

فخفق الإسكندر المقدونى برأسه وأخذته سنة من النوم فى حال ارتقابه الوقت المجمود المأخوذ فيه الطالع، فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه، وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال وخفقت ماعليها من

الأجرس الصغار ـ كان ذلك معمولا بحركات فلسفية وحيل حكيمة ـ فلما رأى الصناع تحرك تلك الحبال وسمعوا تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة.

وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الاسكندر الأكبر من نومه وسأل عن الخبر، فأخبر بذلك فعجب الاسكندر المقدونى وقال:

ـ أردت أمرا وأراد الله غيره ويأبى الله إلا ما يريد، أردت بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك إياها .

وأحكم الإسكندر المقدونى بنيان الإسكندرية وأثبت أساسها. . فلما جن الليل عليهم خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان . . فقال الإسكندر الأكبر حين أصبح:

ـ هذا بدء الخراب فى عمارتها.

وتحقيق مراد العزيز الحكيم فى زوالها.

وتطير الإسكندر المقدونى من فعل دواب البحر وراح يبنى كل يوم ويحكم فتخرج الدواب من البحر فيصبحون وقد أخرب البنيان.

وقلق الإسكندر الأكبر لذلك وراعه مارأى ماذا يصنع؟ أى حيلة تنفع فى دفع الأذية عن المدينة؟

وسنحت له الحيلة فى ليلة جلس وحيدا فى خلوته بنفسه فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاطها خشب التابوت باستدارتها وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء إلى التابوت وقد جعل فيها مواضع للحبال. ودخل الإسكندر الأكبر فى التابوت هو ورجلان معه من كتابه ممن له علم باتقان التصوير ـ الرسم ـ وأمرأن تسد عليهم الأبواب وأن تطلى بالأطلية وأمر فأتى بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر، وعلق على التابوت من أسفله مثقلات من الرصاص والحديد والحجارة تهوى بالتابوت إلى أسفل إذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب فى أسفله، وجعل التابوت بين المركبين ـ إلى المركبين ـ وطول حباله فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر.

نظر الإسكندر المقدوني والرجلان اللذان معه إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر فإذا بشياطين ـ بصور شياطين ـ على مثال الناس رءوسهم على مثال رءوس السباع وفى أيدى بعضهم الفؤوس وفى أيدى بعض المناشير والمقامع يحاكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما فى أيديهم من آلات البناء فأثبت الإسكندر الأكبر ومن معه تلك الصور وأحكموها ـ وحكوها ـ بالتصوير فى القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم، ثم حرك الحبال فلما أحس ذلك من فى المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت، ولما خرج الإسكندر المقدونى من التابوت وسار إلى الإسكندرية أمر صناع الحديد والنحاس فصنعوا تماثيل تلك الدواب على ماكان صوره الإسكندر وصاحباه.

ولما فرغ الصناع من عمل تلك التماثيل وضعت على العمد بشاطىء البحر ولما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات من البحر فنظرت إلى صورها على العمد مقابلة إلى البحر . . فرجعت إلى البحر ولم تعد بعد ذلك.

ولما بنيت الإسكندرية وشيدت أمر الإسكندر الأكبر أن يكتب على أبوابها:

وهذه الإسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات فى الدهور ـ على الدهور ـ فلم يرد البارى عز وجل ملك السموات والأرض ومفني الأمم نبنيها كذلك، فبنيتها وأحكمت بنيانها، وشيدت سورها، وآتانى الله من كل شيء علما وحكما، وسهل لى وجود الأسباب، فلم يتعذر على شيء فى العالم مما أردته، ولا منع على شيء مما طلبته، لطفا من الله عز وجل وصنعابى وصلاحا لى ولعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين لا إله إلا الله رب كل شيء.

ورسم الإسكندر المقدونى بعد هذه الكتابة كل مايحدث ببلده من الأحداث بعده فى مستقبل الزمان، ومن الآفات والعمران والخراب وما يؤول إليه إلى وقت دثور العالم.

وكان بناء الإسكندرية طبقات وتحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة ـ كما تدور المدينة ـ يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة، وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق وتنفسات للضياء ومنافذ للهواء.

وقد كانت الإسكندرية تضىء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شيء من المطر وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصلان - فصول - وربما علق على المدينة شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه.

*** منارة الاسكندرية:**

بناها الإسكندر بن فيلبس - ابن فليبش - المقدونى.

وقيل: إن دلوكة هى التى بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو إلى بلدهم.

وقيل: إن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها.

ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومية هو الذي بني مدينة الإسكندرية والأهرام بمصر، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به لأن الإسكندر الأكبر لم يطرقه في هذا البحر عدو ولاهاب ملكا يرد إليه فى بلده ويغزوه فى داره فيكون هو الذي جعلها مرقبا وأن الذى بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر وعلى طرف لسان البحر الذى دخل في البحر من البر وجعل على أعلى المنارة تماثيل من النحاس وغيره وفيها تمثال - منها تمثال - قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك وإذا علت في الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فإذا إنخفضت إنخفضت يده إلى أسفل يدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو منه على نحو من ليلة فإذا دنا وجار أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد إقترب منهم فيرمقونه بأبصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ماصوت فى الساعة التى قبلها وصوته مطرب.

*** حيلة لهدم المنارة:**

بعث ملك الروم فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان خادما من خواص خدمه سرا كان هذا الخادم ذا رأى ودهاء فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور فورد بآلة حسنة ومعه جماعة فجاء إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فأخبره أنه من

خواص الملك وأنه أراد قتله لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل، وأنه استوحش منه ورغب فى الإسلام فأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك وتقرب من قلبه وتنصح إليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن، فلما رأى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم:

ـ يا أمير المؤمنين إن ههنا أموالا وجواهر ودفائن الملوك.

فقال الوليد بن عبد الملك: ـ أين تلك الأموال والجواهر ودفائن الملوك؟

قال الخادم: ـ تحت منارة الإسكندرية أموال الأرض.

قال أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك: ـ وكيف عرفت ذلك؟

قال الخادم:

ـ إن الإسكندر احتوى على الأموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام فبنى لها الآزاج تحت الأرض وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق ـ الفضة ـ والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة ـ كان طولها ألف ذراع والمرآة على علوها والدبادب جلوس حولها فإذا نظروا إلى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا بمن قرب منهم ونصبوا ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحذر الناس وينذر البلد فلا يكون لعدو عليهم سبيل ـ

فبعث الوليد بن عبد الملك مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من أهل الإسكندرية وغيرها وعلموا أنها مكيدة وحيلة فى أمرها.

ولما علم الخادم الرومى استفاضة ذلك وأنه سينمى إلى الوليد وأنه قد بلغ مايحتاج إليه هرب ليلا فى مركب كان قد أعده وواطأ قوما على ذلك . . فتمت حيلته وبقيت منارة الإسكندرية على هذا الحال . . .

*** بعض عجائب مصر**

نيل مصر

يجرى نهر النيل على وجه الأرض تسعمائة فرسخ.

وقيل: ألف فرسخ فى عامر وغير عامر حتى يأتى أسوان من صعيد مصر وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل وسطها ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ثم يأتى النيل الفسطاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطلمون وحجر اللاهون من بلاد الفيوم وهو الموضع المعروف بالجزيرة التى إتخذها يوسف بن يعقوب عليهما السلام وطنا.

ويمضى نيل مصر جاريا فينقسم خلجات إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية.

وينبع نهر النيل من إثنتى عشرة عينا فتصب تلك المياه إلى بحرين - بحيرتين - ثم يجتمع الماء جاريا فيمر برمال هناك وجبال ويخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج فيتشعب منه خليج إلى بحر الزنج وهو بحر جزيرة قنبلو، يظهر نيل مصر من تحت جبل القمر.

ويتدفق ماء النيل جاريا عذبا حلواينكدر - يصبح عكرا - إبان الزيادة - الفياضان - بمصر وصعيدها.

وسأل معاوية بن أبى سفيان كعب الأحبار:

- هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبرا؟

قال كعب الأحبار:

- إى والذى فلق البحر لموسى عليه السلام إنى لأجد فى كتاب الله عز وجل أن الله يوحى إليه فى كل عام مرتين : يوحى إليه عند جريه: إن الله يأمرك أن تجرى، فيجرى ماكتب الله له، ثم يوحى إليه بعد ذلك: يانيل عد حميدا.

وقال كعب الأحبار:

- أربعة أنهار من الجنة وضعها الله عز وجل في الدنيا: فالنيل نهر العسل فى الجنة، والفرات نهر الخمر فى الجنة، وسيحان نهر الماء فى الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة.

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال:

- نيل مصر سيد الأنهار، وسخر الله له كل نهر من المشرق إلى المغرب، فإذا

أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر أمر الله كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيونا، فإذا إنتهت جريته إلى ما أراد الله عز وجل أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره وقد ورد أن مصر كنانة الله فى أرضه .

وقال كعب الأحبار:

ـ النيل فى الآخرة عسل أغزر مايكون الأنهار التى سمى الله عز وجل، ودجلة ـ يعنى جيحان ـ فى الآخرة لبن أغزر ما يكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل، والفرات خمر أغزر مايكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل، وسيحان ماء أغزر مايكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل .

وقال بعض الحكماء:

ـ ليس فى الدنيا نهر يصب فى بحر الروم والصين والهند غير النيل. وليس فى الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال غير النيل. وليس فى الدنيا نهر يزيد فى أشد مايكون من الحر غير النيل.

وليس فى الدنيا نهر يزيد وينقص على ترتيب فيهما غير النيل ونهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار لأنه يخرج من الجنة.

قال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ **أربعة أنهار من أنهار الجنة : سيحان وجيحان والنيل والفرات**(رواه الشيرازى فى الألقاب عن أبى هريرة).

وقال الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ:

ـ **سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة** (أخرجه مسلم عن أبى هريرة) .

وقال إمام الخير ﷺ:

ـ **فجرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسيحان** ـ نهر سيحون الآن بسرداريا طوله ٢٠٩٠ كليو متر وينبع من جبال تيان شان بوسط قارة آسيا ـ وجيحان ـ نهر جيحون ويعرف حاليا بنهر سرداريا وينبع من جبال هند وكوش فى بحر آرال وهذا النهر يجرى شمال أفغستان وطوله ٣٥٢٣ كليو متر ـ (رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة).

وقال الذى لا ينطلق عن الهوى ﷺ:

- **إن النيل يخرج من الجنة، ولو التمستم فيه حين يمج لوجدتم فيه ورقها** (رواه أبو الشيخ فى العظمة عن أبى هريرة).

وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا وَيَمّاً غير نيل مصر لكبره واستبحاره.

قالت العرب فى النيل:

إنه إذا زاد غاضت - نقصت - له الأنهار والأعين والآبار.

وإذا غاض زادت، فزياداتها من غيضه وغيضه من زيادتها .

وقال البسرى:

يغيض إن زادت له الأنهار   فى الأرض ذات العرض والمقدار

وقالت الهند: زيادته ونقصانه بالسيول

ونحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار وركود السحاب.

وقالت الروم: لم يزد قط ولم ينقص وإنما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت .

وقالت القبط: زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه.

وقيل: لم يزد قط وإنما زيادته بريح الشمال إذا أكثرت واتصلت به فتحبسه فيغيض على وجه الأرض .

قال عمرو بن معد يكرب:

ما النيل أصبح زاخرا بمدوده   وجرت له ريح الصبا فجرى لها

عودت كندة عادة محمــودة   فأصبر لجاهلها ورو سجـــــالها

*** الأهرام:**

إنها قبور الملوك وكان الملك إذا مات وضع حوض حجارة يسمى فى مصر والشام الجرن - الجرون - وأطبق عليه ثم يبنى من الهرم على قدر مايريدون من ارتفاع الأساس ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان

والأقباء ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى يرونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريق في الأرض بعقد أزج فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر، ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه.

كيف بنيت هذه الأهرام الملسة؟ وعلى أى شيء كانوا يصعدون ويبنون؟ وعلى أى شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بصعوبة وجهد إن استطاعوا ذلك؟

كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراقى ـ درجات كدرجات السلم ـ كالدرج فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل وكان لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم ديانة ـ ديانية ـ

وأول من نزل وسكن مصر بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

والأهرام طولها عظيم وبنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السابقة ـ غلب على أهلها القلم الرومي وأشكال الأحرف للروم والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه وخلطها الأحرف الروم بأحرفها على حسب ماولدوا من الكتابة بين الرومى والقبطى الأول ـ والممالك الدائرة ـ

وارتفاع الأهرام فى الجو نحو من أربعمائة ذراع أو أكثر.

ومن تلك الكتابة التى كتبت على الأهرام:

إنا بنينا فمن يدعى موازنتنا ـ موازاتنا ـ فى الملك وبلوغنا في القدرة وانتهائنا من السلطان فليهدمها وليزل رسمها فإن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من التأليف.

وقيل: ليس على وجه الأرض بناء باليد حجرا أطول من أهرام مصر.

*** من بنى أهرام مصر؟**

اختلف فيمن بناها فقيل : شداد بن عاد ـ ثبت بعد فك رموز الكتابة أن بناء أهرامات الجيزة الثلاثة المعروفة هم: خوفو، وخفرع، ومنقرع ـ

وقيل : سويرد. وقيل سويد بناها فى ستة أشهر وغشاها بالديباج الملون وأودعها الأموال والذخائر والعلوم خوفا من طوفان يأتى.

وقيل : بناها سويرد بن سلهوق بن سرياق بن ترميل دون بن قدرشان بن

هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان بثلاثمائة سنة الذين كانوا يسكنون مدينة الأشمونين ـ فى المقريزى : أمسوس ـ

*** لماذا بنيت الأهرام؟**

سبب بنائها بمصر أنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة قد رأى سويرد فى منامه كأن الأرض قد إنقلبت بأهلها وكأن الناس قد هربوا على وجوههم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة، فأغمه ذلك ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم.

ثم رأى بعد مدة مناما آخر أزعجه أكثر من الأول فدخل إلى هيكل الشمس وتضرع ومرغ وجهه على التراب وبكى، فلما أصبح جمع رؤساء الكهنة من جميع أهل مصر وكانوا مائة وثلاثين كاهنا، فخلا بهم وذكر لهم مارآه أولا وآخرا . . فأولوه بأمر عظيم يحدث فى العالم، ثم حكى بعض الكهنة ـ عظيم الكهان ويقال له أقليمون ـ فقال:

ـ إن أحلام الملوك لا تجرى على محال لعظم أقدارهم وأنا أخبر الملك برؤيا رأيتها .

ثم حكى أيضا: أنه رأى مناما أعظم من هذا المنام فى معناه.

ثم أخذ الكهنة الارتفاع للكواكب وأخبروه بالطوفان وبعده بالنار التى تخرج من برج الأسد فقال سويرد بن سلهوق:

ـ أنظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟

قال الكهنة:ـ نعم:

فأمر الملك ببناء الأهرام وجعل فى داخله الطلسمات والأموال وأجساد ملوكهم، وأمر الكهنة أن يزبروا ـ يكتبوا ـ عليها جميع ماقالته الحكماء، فكتبوا فيها وفى سقوفها وحيطانها جميع العلوم الماضية ، وصوروا فيها صور الكواكب وعليها الطلسمات، وجعل طول كل هرم مائة ذراع ـ فى المقريزى : وجعل إرتفاع كل واحد من الأهرامات فى الهواء مائة ذراع ـ بالملكى ـ وهو خمسمائة ذراع بذراعنا اليوم ـ ولما فرغت كساها الديباج الملون وعمل لهم عيدا أحضره ملتهم.

ثم عمل فى الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملونة ملئت

بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفسية، وآلات الحديد الفاخرة، والسلاح الذى لا يصدأ، والزجاج الذى ينطوى ولا ينكسر، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة، ثم عمل فى الهرم الشرقى أصناف القباب الفلكية والكواكب وماعمله من أجداده.

ويقال:

إن هرمس المثلث الموصوف بالحكمة وهو الذى تسميه العبرانية خنوخ وهو نبى الله إدريس عليه السلام إستدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان فأمر ببناء الأهرام وايداعها الأموال وصحائف العلوم ومايخاف عليه الذهاب والدثور، وكل هرم منها ارتفاعه ثلاثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح متساويات الأضلاع كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا .

قال عمارة اليمنى:

خليلى ماتحت السماء بنية ... تماثل فى إتقانها هرمى مصر

بناء يخاف الدهر منه وكل ما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تتمزه طرفى فى بديع بنائها ... ولم يتنزه فى المواد بها فكرى

وقال سعد الدين بن جبارة:

لله آى غريبة وعجيبة ... فى صنعة الأهرام للألباب

أخفت عن الأسماع قصة أهلها ... ونضت عن الإبداع كل نقاب

فكأنما هى كالخيام ومقامة ... من غير ماعمد ولا أطناب

*** أبو الهول:**

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان وجسد أسد تسميه العامة أبا الهول لعظمه، والقبط يزعمون أنه طلسم للرمل الذى هناك لئلا يغلب على أرض الجيزة.

*** مسلة فرعون:**

وهى عمود ـ فى المقريزى: مسلتان بعين شمس على القرب من المطرية من ضواحى القاهرة من حجر صوان أحمر محددتا الرأس ـ مدينة عين شمس الذى

تسميه العامة: مسلة فرعون وبها صدع أبى قير - فى المقريزى شعب البواقرات بناحية أشمون من أرض الصعيد - وهو موضع فى الجبل يجتمع إليه فى يوم مخصوص فى السنة جميع جنس الطير، وبالجبل طاقة يدخل فيها كل طير يأتى إليه ثم يخرج من وقته حتى ينتهى إلى آخر الطير فتقبض عليه ويموت فيها.

*** مجمع البحرين:**

وهو البرزخ الذى ذكره العليم الخبير فى محكم كتابه فقال عز وجل ﴿ **مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لايبغيان**﴾سورة الرحمن آية: ١٩ ، ٢٠ وقال تعالى: ﴿ **وجعل بين البحرين حاجزا**﴾ ولعل هذا الذى قال كليم الله عليه السلام لفتاه يوشع بن نون ﴿**وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا**﴾ سورة الكهف آية: ٦٠ وكان لقاء موسى عليه السلام بالخضر والله أعلم.

فمجمع البحرين وهو البرزخ وهما بحر الروم والصين والحاجز بينهما مسيرة ليلة واحدة مابين القلزم والفرما.

*** حيوان السقنقور:**

وهو نوع من السحالى ينتشر بشمال افريقيا برتقالى اللون مخطط يالبنى الداكن يدفن نفسه بالرمال بسرعة ويتغذى بالحشرات، والنمس ولولاه لأكلت الثعابين أهلها فهو كقنافذ سجستان لأهلها.

*** دهن البلسان:**

ولا ينبت عرقه إلا بمصر خاصة وتسميه العامة البلسم وينبت عرقه ببقعة مخصوصة بأرض المطرية من ضواحى القاهرة على القرب من عين شمس ويستعمل فى بعض الأدوية والنصارى تعتقد فى هذا النبات ما تعتقد وترى أنه لا يتم تنصر نصرانى حتى يوضع شىء من هذا الدهن فى ماء المعمودية لاعتقادهم أن هذا النبات يسقى من بئر اغتسل بها عيسى بن مريم عليه السلام حين قدم هو وأمه ويوسف النجار إلى مصر ونزلوا بعين شمس.

*** الذهب والزمرد والأبنوس:**

وبمصر معادن كثيرة كالذهب والزمرد وليس فى الدنيا معدن زمرد سواه، وبها النفط والشب - بالقرب من أسوان - والنفط - على ساحل بحر القلزم - والبرام والرخام وبها الأبنوس وحجر السنباذج الذى يقطع به سائر الأحجار.

* كتابة على البرابى.

كان فرعون مصر وملوكها يرقبون الطوفان ولكنهم لم يتيقنوا - لم يعينوه - أنارا هو أم ماء أم سيف؟

فبنوا البرابي جمع برباة أو بربا وهو اسم أطلقه المصريون على جميع المعابد والآثار القديمة ورسمت فيها علومها من الصور ورسم عليها من الكتابة والصور والتماثيل وجعلت بنايتها نوعين: طينا وحجرا وفرزت مايبنى بالطين مما يبنى بالحجر وقالوا:

- إن كان الطوفان نارا استحجر مايبنى من الطين وانحرق وبقيت هذه، العلوم، وإن كان الطوفان ماء أذهب مايبنى بالطين ويبقى مايبنى بالحجارة، وإن كان الطوفان سيفا بقى كلا النوعين ماهو بالطين وماهو بالحجارة - إن كان سيفا أى الحرب أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها وملك نزل عليها فأباد أهلها -

ومن الكهان من رأى أن هذا الطوفان كان وباء عم أهلها.

ومثال ذلك مايوجد ببلاد تنيس من التلال المنضدة من الناس من صغير وكبير وذكر وأنثى كالجبال العظام وهى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بأبى الكوم - ذوات الكرم - وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين - المكبسين - بعضهم على بعض فى كهوف وغيران - وغديران -

ونواريس، ومواضع كثيرة من الأرض لايدرى من أى الأمم هم، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم، ولا المسلمون يدرون من هم؟ ولا تاريخ ينبىء عن حالهم، عليهم أثوابهم، وكثيرا ما يوجد فى تلك الروابى والجبال حليهم.

والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا المتخذة بأنصناء من صعيد مصر وهو أحد الموصوفين منها، والبربا التى ببلاد أخميم والبربا التى ببلاد سمنود وغير ذلك.

وقد وجد كتابا فى بعض البرابى مكتوب فيه:

احذروا العبيد المعتقين، والأحداث المغترين - احذروا العبيد المعتقين والأحداث المقربين - والجند المتعبدين والنبط المستعربين.

وفى كتاب آخر: يقدر المقدور والقضاء يضحك.

وفى كتاب آخر: تدبر بالنجوم ولست تدرى   ورب النجم يفعل مايريد

فهل اتخذت هذه الأمة المجهولة هذه البرابى لهجة بالنظر فى النجوم أن طرفانا سيكون فى الأرض؟ لم تكن تدرى أن هذا الطوفان ماهو؟ أنار تأتى على الأرض فتحرق ماعليها؟ أو ماء فيغرقها؟ أو سيف يبيد أهلها؟ فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها؟ فاتخذت هذه البرابى ؟؟؟

*** خاتم الأنبياء ﷺ يبعث إلى ملوك الآفاق.**

بعث الله عز وجل أبا القاسم ﷺ إلى الناس كافة **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾**[١] .

فأرسل كتبا إلى ملوك الأرض وحكامها يدعوهم إلى دين الإسلام .

ولما أراد النبى ﷺ أن يرسل بكتاب المقوقس حاكم مصر قال:

ـ أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله؟

فوثب إليه الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة وقال:

ـ أنا يارسول الله

فقال المبعوث للناس كافة ﷺ: **ـ بارك الله فيك ياحطب.**

فأخذ حاطب الكتاب وشد راحلته وإنطلق إلى مصر فقد كان يعرف الطريق فكثيرا ماخرج إلى مصر للتجارة وكان على مصر جريج ـ تصغير جورج ـ بن مينا ـ المقوقس وكان مصريا ولكنه كان يحكم مصر من قبل هرقل يجمع له الضرائب ثم يحملها إلى القسطنطينية وكانت الإسكندرية مقر حكمه. .

ولما قدم حاطب بن أبى بلتعة الإسكندرية سار إلى قصر المقوقس وقدم إليه كتاب أبى القاسم ﷺ ففضه جريج بن مينا وقرأه:

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى وبعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط **﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**[٢].

---

(١) سورة سبأ آية: ٢٨ .   (٢) سورة آل عمران آية: ٦٤ .

ووضع المقوقس رسالة خاتم الأنبياء ﷺ مكانها من نفسه فقد كان يعلم أن أبا القاسم ﷺ خاتم المرسلين ﷺ فلقد قرأ نعته وصفته فى التوراة والإنجيل ثم وضع الكتاب فى عناية وتوقير فى حق من عاج ثم دفعه إلى واحدة من جواريه والتفت جريج بن مينانحو الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة وتساءل:

ـ مامنعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها؟

ولم يجب حاطب بن أبى بلتعة تأدبا . . فأعاد المقوقس سؤاله:

ـ مامنعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم؟

فقال الصحابي الجليل حاطب بن أبى بلتعة:

ـ أليست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟

قال المقوقس: بلى.

قال حاطب بن أبى بلعتة:

ـ فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه؟

فنظر حاكم مصر إلى حاطب فى إعجاب وقال:

ـ أحسنت . . أنت حكيم جاء من عند حكيم.

فقال حاطب بن أبى بلتعة:

ـ إنه كان قبلك رجال ـ فرعون ـ يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك.

وفهم جريج بن ميناومن حوله أن الصاحبى الجليل حاطب بن أبى بلتعة يقصد فرعون موسى..

وعاد حاطب بن أبى بلتعة يقول:

ـ إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى.

ولعمرى مابشارة موسى بعيسى عليهما السلام الإكبشارة عيسى بمحمد ﷺ وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس:

ـ إنى نظرت فى أمر هذا النبى فرأيته لا يأمر بموعود ولا ينهى عن مرغوب عنه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى . . وسأنتظر.

ثم دعا حاكم مصر كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى خاتم الأنبياءﷺ:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك . .

أما بعد فلقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وماتدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبثياب وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك.

وأقام الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة خمسة أيام بالإسكندرية التي كانت مقرا لحكم المقوقس ثم خرج من قصره وفى رفقته مارية بنت شمعون القبطية وأختها سيرين وطبيب وبغلة بيضاء وهدايا جريج بن مينا ومازالت كلماته تدوى بين جدران رأسه:

ـ القبط لا تطاوعنى على اتباعه وأنا أضن ـ أبخل ـ بملكى أن أفارقه فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا.

وكان حاطب بن أبى بلتعة يعرف الطريق إلى مدينة رسول الله ﷺ فكثيرا ماخرج للتجارة إلى مصر.

وذكر حاطب ماقاله له المقوقس لرسول الله ﷺ فقال الذى لا ينطلق عن الهوى ﷺ:

ـ ضن الخبيث بملكة ولابقاء لملكه.

وقال طبيب القلوب والعقول ﷺ للطبيب:

ـ ارجع إلى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.

*** مارية القبطية**

وأعجب رسول الله ﷺ بمارية القبطية فاكتفى بها ووهب أختها سيرين لشاعره حسان بن ثابت . .

وطار النبأ إلى دور النبى ﷺ أن شابة مصرية جعدة الشعر جذابة الملامح قد جاءت من أرض النيل هدية لأبى القاسم ﷺ وأنزل رسول الله ﷺ مارية بنت شمعون بمنزل بالعالية قرب المسجد.

وكان خاتم الأنبياء ﷺ يختلف إلى مارية بنت شمعون فى منزلها وضرب عليها الحجاب ـ كان حاطب بن أبى بلتعة قد عرض عليها الإسلام ورغبها فيه فنطلقت بشهادة الحق وأسلمت هى وأختها سيرين ـ وكان يطأها بملك اليمين فقد اصطفاها وأكثر التردد عليها.

ولدغت عقارب الغيرة صدر عائشة بنت أبى بكر بعد أن تكلفت ما استطاعت من جهد لكى تعلل نفسها بألاخطر عليها من شابة جديدة ليست إلاجارية مصرية أهداها سيد إلى سيد . . ولكن القلق والخوف تسللا إلى صدرها لما رأت رسول الله ﷺ يمكث لدى مارية بنت شمعون طويلا . . ويتردد عليها كثيرا.

وكانت مارية القبطية تحمل فى كيانها سحر مصر وفى أعطافها أريج الوادى العطر . . وكانت تستعيد قصة هاجر المصرية التى جاءت من أرض النيل وحملت مع سيدها أبى الأنبياء عليه السلام . . ثم مضت مع خليل الرحمن زوجها وابنها إسماعيل إلى البيت العتيق.

وأحست مارية بنت شمعون بحركة فى أحشائها . . هل هذه بوادر حمل مستكن؟ هل هو شوق إلى الأمومة؟ هل هو تفكير دائم فى هاجر وإسماعيل ؟ لماذا لا تكتم الأمر شهرا أو شهرين؟.

وصار الحمل يقينا فأخبرت رسول الله ﷺ ففرح وقال: ﴿ **قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم* فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم* قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم**﴾[1].

فلما سمعت مارية بنت شمعون قول الحق جل وعلا عن خليل الرحمن قالت وهى تتبسم:

---

(١) سورة الذاريات آية: ٢٨ ـ ٣٠.

ـ لكنى لست عجوزا يانبى الله.

يقول الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص:

ـ كنا مع رسول الله ﷺ فهبط عليه جبريل عليه السلام فقال: ياأبا إبراهيم الله يقرئك السلام فقال له النبى ﷺ: نعم أنا أبو إبراهيم وإبراهيم جدنا وبه عرفنا وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه ﴿**ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين**﴾ سورة الحج آية ٨٨.

لقد بشره العليم الحكيم بإبراهيم من فوق سبع سماوات...

وولدت مارية بنت شمعون إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة فدفعه نبى الرحمة ﷺ إلى أم بردة بنت المنذر بن يزيد بن النجار فكانت ترضعه.

تقول الصديقة بنت الصديق:

ـ ماغرت من امرأة إلا دون ماغرت على مارية وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة وأعجب بها رسول الله ﷺ وكان أنزلها أول ماقدم بها بيت لحارثة بن النعمان فكانت جارتنا فكان رسول الله ﷺ عامة النهار والليل عندها حتى فرغا لها فجزعت فحولت إلى العالية فكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد علينا ثم رزق الله منها الولد وحرمنا منه.

ومرت الحياة فى مسيرتها وإبراهيم ابن سيد الخلق ﷺ عند أم بردة بنت المنذر ترضعه وترعاه وكان إمام الخير ﷺ سعيدًا بابنه إبراهيم فقد طال شوقه إلى إستقبال ذلك الوليد ـ بعد القاسم والطيب والطاهر ومن ولدتهم له السيدة الطاهرة خديجة بنت خويلد ـ وشماته أناس من شانئيه سماه بعضهم كالعاص بن وائل السهمى بالأبتر ـ الذى لاعقب له ـ فنزل قوله تعالى﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾[1].

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد خلالها زوجة من زوجاته.

قال الصادق المصدوق ﷺ:

ـ استوصوا بالقبط ـ المصريون أخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ـ خيرا فإن لهم ذمة ورحما (رواه مسلم فى صحيحه).

وإن كانت مارية بنت شمعون المصرية تقيم سرية للنبى ﷺ لم تحظ بلقب أم

(١) سورة الكوثر آية: ٣.

المؤمنين ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابنه إبراهيم إلى جانب حظوتها مثلهن بشرف الصحبة .

وأعتق رسول الله ﷺ مارية بنت شمعون وقال:

أعتقها ولدها (رواه ابن ماجه والدارقطنى وابن سعد والحاكم فى مستدركه).

- ومات إبراهيم عندما بلغ ثمانية عشر شهراً فحزن نبى الرحمة ﷺ حزنا شديدا وقال:

- إن له مرضعا ترضعه فى الجنة ولو عاش لكان صديقا نبيا ولو عاش لعتقت أخواله من القبط وما أسترق قبطى(رواه بن ماجه عن عبد الله بن عباس).

ثم قال ﷺ:

- **لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى** (رواه ابن سعد عن الزهرى مرسلا).

وماتت مارية بنت شمعون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد موت رسول الله ﷺ بخمس سنوات أى فى العام السادس عشر من الهجرة ودفنت بالبقيع.

*** أصل العرب.**

العرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان.

وبعض أهل اليمن يقول:- قحطان من ولد إسماعيل.

فإسماعيل أبو العرب كلها.

وهاجر أم إسماعيل من مصر فالمصريون أخوال العرب .

يقول ابن لهيعة:- أم إسماعيل: هاجر من أم العرب وهى قرية كانت أمام مدينة الفرما التى بناها الفرما بن قيلقوس من مصر.

وأم إبراهيم مارية بنت شمعون سرية النبى ﷺ التى أهداها له المقوقس من حفن وهى قرية بالصعيد معروفة.

ولما حقن الحسن بن على دماء المسلمين وتنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان كلمه أن يضع الخراج عن أهل حفن ففعل معاوية بن أبى سفيان ذلك حفظا لوصية رسول الله ﷺ ورعاية لحرمة الصهر.

*** نبوءة رسول الله ﷺ.. وفتح مصر.**

تنبأ الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ بتحرير مصر من حكم الرومان فقال لأصحابه يوما:

- إذا فتحتم - افتتحتم - مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما.

فقيل:- ما الرحم الذى ذكر رسول الله ﷺ؟

قيل:- كانت هاجر أم إسماعيل منهم - من مصر -

وقال خاتم الأنبياء ﷺ:

- إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا فذلك الجند خير أجناد الأرض.

فقال أبو بكر الصديق:- ولم يارسول الله؟

قال ﷺ: **- لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة** (رواه بن عبد الحكم فى فتح مصر وابن عساكر وابن حبان).

*** فتح مصر فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .**

حين انكسرت شوكة الروم بالشام، وتم فتح معظم مدنه، واستولى المسلمون على ثغوره وقلاعه، ومضت فى ذهن عمرو بن العاص فكرة فتح مصر وتحريرها من ظلم الرومان فانتهز زيارة الفاروق الشام فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة وعرضها عليه، فتردد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إشفاقا على المسلمين أن يورطهم فى حرب ضروس أخرى وهم لم تندمل جراحهم من حروب الشام . ولكن عمرو بن العاص كان قوى الحجة رائع البيان، فذكر لأبى حفص أن أرطبون - ملك وداهية - الروم قد فر إلى مصر لما أيقن إتجاه أهل بيت المقدس إلى مصالحة المسلمين، ولابد أنه يعمل على تجييش الجيوش بها لمعاودة حرب العرب، والمصلحة تقتضى بمداهمة مصر حتى لا يتسع وقت الروم للحشد والتعبئة وسأل عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر:

- ألم تسمع حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا؟

قال أمير المؤمنين عمر :

ـ نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : **إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر : ولم يارسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة** (رواه ابن عبد الحكم فى فتح مصر وابن عساكر عن عمر) .

ومضى عمرو بن العاص يهون أمر فتح مصر لأبى حفص فاقترح أن يسير إلى مصر فى أربعة آلاف مجاهد فقط ، فأذن له أمير المؤمنين عمر فى ذلك على تردد وأنهى إليه أنه سيرسل إليه أثناء سيره إلى مصر رسالة برأيه الأخير .

ولما رجع الفاروق إلى مدينة رسول الله ﷺ استشار كبار الصحابة فى الأمر فاستعظم عثمان بن عفان الأمر وذكر ذو النورين أن فى عمرو بن العاص جرأة وتهورا . . فعاد أبو حفص إلى تردده وإشفاقه على المسلمين . . ولكنه خشى أن لا تبلغ رسالة الفاروق عمرو بن العاص إلا بعد أن يكون قد دخل مصر فيحدث رجوعه إلى المدينة أثرا بالغا فى سمعة العرب والإسلام، فتوسط الأمر وكتب إلى عمرو كتابا يقول فيه :

إذا بلغتك رسالتى قبل دخولك مصر فارجع وإلا فسر على بركة الله .

وجاء رسول أمير المؤمنين عمر عمرو بن العاص وهو عند رفح ، ففطن عمرو بن العاص بدهائه فلم يأخذ كتاب أبى حفص من الرسول حتى بلغ العريش وحينئذ استدعى رسول أمير المؤمنين وأخذ كتابه ففضه وقرأ مافيه ثم سأل أصحابه :

ـ أنحن الآن فى مصر أم فى فلسطين؟

قالوا :ـ نحن فى مصر .

قال عمرو بن العاص :ـ إذن نسير فى سبيلنا كما أمرنا أمير المؤمنين .

وتحققت نبوءة خاتم الأنبياء ﷺ وتم فتح مصر .

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

ـ الأمصار سبعة : فالمدينة مصر ، والشام مصر ، ومصر ، والجزيرة ، والبحرين ، والبصرة ، والكوفة (رواه ابن عساكر عن عمر) .

* من دخل مصر من أصحاب رسول الله ﷺ .

دخل مصر من الصحابة فى فتح مصر:

عمرو بن العاص بن وائل السهمى، المقداد بن عمرو ـ المقداد بن الأسود ـ، عبادة بن الصامت، الزبير بن العوام، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعمرو بن علقمة، وشرحبيل بن حسنة، سعد بن أبى وقاص، عبد الله بن حذافة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، محمد بن مسلمة، أبو رافع، مسلمة بن مخلد، وأبو أيوب الأنصارى ـ خالد بن زيد ـ، نافع بن مالك ـ نافع بن قيس الفهرى ويقال: هو عقبة بن نافع ـ، ومعاوية بن خديج، وعمار بن ياسر، خالد بن الوليد وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وقيل: إن عبادة بن الصامت لما دخل مصر بحث عن قرية حفن وسأل عن موضع مارية القبطية فبنى به مسجدا.

* بيع سفح المقطم للمقوقس.

بعد أن استقر الأمر لعمرو بن العاص بمصر سأل جريج بن مينا أبا عبد الله أن يبيعه سفح جبل المقطم بسبعين ألف دينار فعجب عمرو بن العاص من ذلك وقال:

أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وكتب بذلك إلى الفاروق.

فكتب أبو حفص إلى أبى عبد الله:

سله لم أعطاك به ما أعطاك؟ وهى لاتزرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها؟

فسأل عمرو بن العاص المقوقس.

فقال المقوقس:ـ إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة.

فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر.

فكتب الفاروق إلى أبى عبد الله:

إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولاتبعه بشى.

فاتخذ عمرو بن العاص سفح جبل المقطم مقبرة ودفن المسلمين بها .

وكان أول من قبر فيها رجل من المعافر يقال له عامر.

فقيل:ـ عمرت.

*** أول من حكم مصر بعد الفتح الإسلامى.**

*** عمرو بن العاص.**

حرر أبو عبد الله أهل مصر من ظلم الروم فأقره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واليا عليها سنة عشرين من الهجرة فسكن الفسطاط ولسبب تسمية مصر بالفسطاط أقوال كثيرة منها:

لما أراد عمرو بن العاص التوجه لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه ـ خيمته ـ فإذا فيه يمامة قد فرخت فقال عمرو بن العاص:

ـ لقد تحرم منا بمتحرم.

فأمر به كما هو وأوصى به صاحب القصر فلما عاد المسلمون من الإسكندرية تساءلوا:ـ أين ننزل؟

قالوا:ـ الفسطاط

يعنون الفسطاط الذى خلفه عمرو بمصر ولأجل اليمامة فغلب عليه ذلك وكان موضع الفسطاط المذكور.

وقيل: كان فسطاط عمرو عند درب حمام شمول ـ جامع شمول ـ فلما رجع عمرو من الإسكندرية فى سنة إحدى وعشرين نزل موضع فسطاطه وتنافست القبائل بعضها مع بعض المواضع فولى عمرو معاوية بن خديج وبعض الرجال على الخطط ثم بنى جامعه ـ جامع عمرو بن العاص ـ وظل عمرو أول والى على مصر بعد الإسلام خمس سنوات ثم عزله أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

*** عبد الله بن أبى سرح.**

كان أخوذى النورين من الرضاعة وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ـ أخو عثمان لأمه ـ وأمره ذو النورين أن يغزو إفريقية ففتحها وظل ابن أبى سرح واليا على مصر إحدى عشرة سنة .

*** محمد بن أبى حذيفة بن عتبة.**

وثب محمد بن أبى حذيفة على مصر وملكهامن غير ولاية من خليفة فلذلك لم يعده المؤرخون من أمراء مصر فقد جمع جمعا وركب بهم على عقبة بن عامر الجهنى خليفة عبد الله بن أبى سرح وقاتله وهزمه وأخرجه من الفسطاط ثم دعا

الناس لخلع عثمان من الخلافة.

*** قيس بن سعد بن عبادة.**

لما بايع المسلمون أبا الحسن أميرا للمؤمنين بعد مقتل ذى النورين بعث أمير المؤمنين على بن أبى طالب قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر فظل عليها سنة.

*** الأشتر النخعى.**

وهو مالك بن الحارث ولاه أمير المؤمنين على على مصر.

*** محمد بن أبى بكر الصديق.**

ظل ابن أبى بكر واليا على مصر سنة سبع وثلاثين من الهجرة.

*** عمرو بن العاص.**

ولى مصر بعد محمد بن أبى بكر من قبل معاوية بن أبى سفيان وظل واليا عليها خمس سنين.

*** عتبة بن أبى سفيان.**

أخو معاوية بن أبى سفيان ظل واليا على مصر سنتين.

* عقبة بن عامر الجهنى ظل واليا على مصر ثلاث سنين حتى عزل سنة سبع وأربعين من الهجرة.

*** مسلمة بن مخلد.**

الصحابى الأنصارى ظل واليا على مصر خمس عشرة سنة حتى توفى سنة اثنين وستين من الهجرة.

*** سعيد بن يزيد الأزدى.**

ولى مصر سنتين.

*** عبد الرحمن بن جحدم الفهرى.**

ولى مصر من قبل عبد الله بن الزبير سنة خمس وستين من الهجرة.

*** عبد العزيز بن مروان الأموى.**

والد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ولى مصر منذ عام ستة وستين من

الهجرة وفى عام سبعين من الهجرة وقع بمصر الطاعون فخرج عبد العزيز بن مروان ونزل حلوان فأعجبته فاتخذها سكناوجعل بها الحرس والأعوان وبنى بها الدور والمساجد.

وظل عبد العزيز بن مروان واليا على مصر عشرين سنة . . أى حتى سنة خمس وثمانين من الهجرة .

*** طبائع البلدان**

سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كعب الأحبار ـ كان حبرا من أحبار يهود وأسلم ـ عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال كعب الأحبار:

ـ إن الله عز وجل لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء، فقال العقل: أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: وأنا معك، فقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك، وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة: وأنا معك، وقال البخل: أنا لاحق بالمغرب، فقال سوء الخلق: وأنا معك.

ويقال: لما خلق الله الخلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان، والحياء، النجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق والغنى، والفقر والذل والشقاء. فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: وأنا معك، وقالت النجدة: وأنا لاحقة بالشام، فقالت الفتنة: وأنا معك، وقال الكبر: أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق: وأنا معك، وقال الغنى: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك، وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشفاء ـ الصحة والعافية ـ: وأنا معك.

يقول عبد الله بن عباس:

ـ المكر عشرة أجزاء تسعة منها فى القبط وواحد فى سائر الناس.

فمصر قد لحق بها الخصب والغنى . . فهى جنة الله فى أرضه.

*** مصر جنة الله فى أرضه .**

لما كان عام الرمادة قحط الناس وهزل المال وفشت المجاعة وصادف ذلك العام طاعون عمواس فكان الموت يحصد النفوس والجدب والقحط فتفانى فى هذا العام الناس. . . فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل مدينة رسول الله ﷺ ومن حولها ويستمدهم.

وجاء كتاب عمرو بن العاص أمير مصر جواب كتاب أمير المؤمنين عمر فى الأستغاثة:

إن البحر الشامى حفر لمبعث رسول الله ﷺ حفيرا فصب فى بحر العرب فسده الروم والقبط فإن أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهرا وبنيت له قناطر.

فكتب الفاروق إلى عمرو:

أفعل وعجل ذلك.

ولما بدأ عمرو بن العاص فى الحفر - ليصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض - قال له أهل مصر:

- خراجك زاج - يقال: زجا الخراج زجاء فهو زاج إذا تيسرت جبايته - وأميرك راض وإن تم هذا انكسر الخراج.

فكتب أمير مصر إلى أمير المؤمنين عمر بذلك وذكر أن فيه إنكسار خراج مصر وخرابها.

فكتب الفاروق إلى عمرو بن العاص:

خرب الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها.

فعالجه عمرو بن العاص وهو بالقلزم - أعاد حفر خليج تراجان الموصل من مصر إلى البحر الأحمر - قناة السويس حاليا لتنقل السفن المؤونة إلى الحجاز - فانسابت السفن تحمل الطعام.. فكان طعام مدينة رسول الله ﷺ كسعر طعام مصر.. ولم يزد ذلك كنانة الله إلا رخاء فلم ير أهل المدينة بعد عام الرمادة قحطا ولا مجاعة.

❁ عروس النيل:

وأتى أهل مصر عمرو بن العاص حين دخل شهر بؤنة فقالوا:

- أيها الأمير لنيلنا هذا سنة - عادة - لايجرى إلا بها.

فتساءل عمرو:- وماذاك؟

قال أهل مصر:- إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر - بؤنة - عمدنا إلى جارية - فتاة - بكر من عند أبويها فأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها فى هذا النيل فيجرى.

فقال عمرو بن العاص فى عجب:

- إن هذا لا يكون فى الإسلام إن الإسلام يهدم ماكان قبله.

ولم يلق أهل مصر بعروس النيل فى هذا العام وأقاموا شهر بؤنة وشهر أبيب

وشهر مسرى.. ثلاثة أشهر والنيل لا يجرى قليلا ولا كثيرا وظن الناس أن النيل غضب وأن القحط قد حل فهم أهل مصر بالجلاء.. فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بذلك فكتب الفاروق إليه:

إنك قد أصبت بالذى فعلت وإنى بعثت إليك بطاقة داخل كتابى فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى.

فلما قدم كتاب أبى حفص أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر.

أمابعد، فإن كنت إنما تجرى من قبلك ـ بأمرك ـ ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجرى بأمر الله الواحد القهار وهو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك.

فعرف عمرو أهل مصر بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة..

ثم ألقى عمرو بن العاص البطاقة فى النيل.. فأصبحوا يوم السبت ـ يوم عيد الصليب ـ وقد أجرى العزيز الحكيم النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة. فقطع القوى المتين هذه السنة ـ إلقاء عروس النيل فى النيل ـ القبيحة عن أهل مصر إلى اليوم ببركة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (رواه ابن لهيعة عن قيس ابن الحجاج وابن عبد الحكم).

وقد أطلق أبو التاريخ المؤرخ اليونانى هيرودتس عبارته الشهيرة: مصر هبة النيل.. فلولا النيل لكانت مصر صحراء جرداء لانبات فيها ولا حيوان.. ولم لا؟ أليس النيل نهرا من أنهار الجنة؟

لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن تكون مصر صدرا حنونا لكل ملهوف فتمد يدها الطولى إلى كل محتاج منذ أقدم العصور فقد جاء أبناء يعقوب عليه السلام إلى مصر من فلسطين يسألون العزيز ـ أخاهم يوسف عليه السلام ـ الميرة ويشكون إليه القحط والجدب اللذين أصاب بلادهم فأعطاهم من خيرات مصر.. وأسرع عمرو بن العاص بإمداد أهل مدينة رسول الله ﷺ ومن حولهم عام الرمادة بالطعام والكساء.. وستظل مصر جنة الله فى أرضه إلى أن تقوم الساعة ببركة دعاء نبى الله نوح عليه السلام.

*** لعنة الفراعنة.**

لما كان عبد العزيز بن مروان أميرا من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن

مروان أتاه رجل متنصح فسأله عبد العزيز بن مروان عن نصحه فقال:

ـ بالقبة الفلانية كنز عظيم.

قال عبد العزيز بن مروان:ـ ومامصداق ذلك؟

قال الرجل المتنصح:

ـ هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير الحفر، ثم ينتهى بنا الحفر إلى قلع باب من الصُفْر، تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك من الذهب عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا ـ خراج الدنيا ـ وجناحاه مضرجتان بالياقوت والزمرد، براثنه ـ مخالبه ـ على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود.

فأمر عبد العزيز بن مروان له بنفقة ألوف من الدنانير لأجرة من يحفر من الرجال فى ذلك ويعمل فيه.

وكان هناك تل عظيم فاحتفروا حفرة عظيمة فى الأرض فظهر بلاط من المرمر والرخام .. وزاد عبد العزيز بن مروان حرصا على ذلك.. وأكثر من الرجال الذين انتهوا فى حفرهم إلى ظهور رأس الديك ـ على رأسه صفائح الذهب ـ فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف لما فى عينيه من الياقوت وشدة نوره ولمعان ضيائه، ثم بانت قوائمه وجناحاه ثم بانت براثنه وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع من الأحجار والرخام، وقناطر مقنطرة، وطرقات على أبواب معقودة، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور والذهب وأجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وشبكت، وقيد ذلك بأعمدة الذهب.

وركب عبد العزيز بن مروان حصانه وخرج من قصره حتى قدم فأشرف على الموضع فنظر إلى ماظهر من ذلك، وأسرع بعض الرجال فوضع قدمه على درجة منسبكة ـ مشبكة ـ من نحاس تنتهى إلى ماهنالك فلما استقرت قدمه على المرقاة ـ الدرجة ـ الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها،فالتفتا ـ التقيا ـ على الرجل، فلم يدرك حتى جزاه ـ جز: قص وقطع ـ قطعا .

وهوى جسمه سفلا، فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك تصفيرا عجيبا سمعه من كان بالبعد وحرك الديك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة، وقد عملت باللوالب ـ الكواكب ـ والحركات، إذا ماوقع على بعض تلك الدرج شيء أو مسها. فتهافت من هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة ـ كانوا أكثر من ألف رجل يحفرون وينقلون التراب ـ فهلكوا جميعا.

وجزع عبد العزيز بن مروان وقال:

ـ هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل نعوذ بالله منه.

وأمر أمير مصر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من التراب على من هلك من الرجال . . فكان هذا الموضع قبرا لهم . .

فهل تحل لعنة الفراعنة على كل من يقترب من دفائن أرض مصر؟؟؟

*** مكة .. المدينة .. مصر .. الجزيرة العربية.**

جاء ذكر أم القرى في القرآن الكريم تكريما لها فهى البلد الأمين التى وضع بها أول بيت . . وقد أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ أن المسيح الدجال لا يدخلها . .

ومدينة رسول الله ﷺ تحرسها الملائكة ولا يدخلها الدجال . .

ومصر . . جنة الله فى أرضه ذكرت فى القرآن فى أكثر من موضع تصريحا وتلميحا . .

وكانت وصية رسول الله ﷺ لأصحابه إذا فتحوا مصر أن يستوصوا بأهلها خيرا . .

كا ذلك دعم مابين مصر والجزيرة العربية من صلة عريقة بدأت بهاجر من أعماق الماضى الموغل فى القدم.

ثم كانت مارية بنت شمعون التى أهداها جريج بن مينا ـ المقوقس ـ إلى رسول الله ﷺ فاتخذها النبى ﷺ سرية للفراش فولدت له إبراهيم.

وإن كانت مكة تدق أعناق الجبابرة وكل من حاول أن يدخلها عدوانا وبغيا.

فإن مدينة رسول الله ﷺ، مامن نقب إلا عليه ملكان يحرسانها.

ومصر منذ القدم مقبرة الغزاة . . فأين التتار . . ؟ وأين . . ؟ وأين . . ؟

يقول الشاعر حافظ إبراهيم:

ما رمانى رام وراح سليما   من قديم عناية الله جندى

فمصر خزائن الأرض كلها، فمن أراد بها سوءا قصمه الله . . لقد جاء ذلك فى التوراة التى أنزلت على كليم الله موسى عليه السلام.

المراجع

* القرآن العظيم
* الجامع لأحكام القرآن — القرطبى
* تفسير القرآن العظيم — ابن كثير
* فى ظلال القرآن. — سيد قطب
* صحيح البخارى.
* صحيح مسلم.
* سنن الترمذى.
* سنن أبى داود.
* سنن النسائى. — السيوطى
* مروج الذهب. — المسعودى
* النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. — جمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن تفرى بردى الأتابكى
* فتح العرب لمصر. — ألفردبتلر
* فضائل مصر. — عمر بن محمد يوسف الكندى
* تقويم البلدان. — لأبى الفداء
* فتوح البلدان — البلاذرى
* فتوح مصر وأخبارها. — ابن عبد الحكيم.
* تهذيب التهذيب. — ابن حجر العسقلانى
* الكامل فى التاريخ. — ابن الأثير
* كنز العمال. — الهندى
* البداية والنهاية. — ابن كثير
* رجال ذكرهم القرآن. — عبد العزيز الشناوى
* مسند الإمام أحمد.
* الجنة فى القرآن والسنة. — عبد العزيز الشناوى
* الخطط المقريزية. — المقريزى
* حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة. — السيوطى
* الأوائل . — أبو هلال العسكرى
* جمهرة أنساب العرب. — ابن حزم الأندلسى.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

